@ketab_n
Follow Me
13.9.2015

رواية

نديم غورسيل

المرأة الأولى

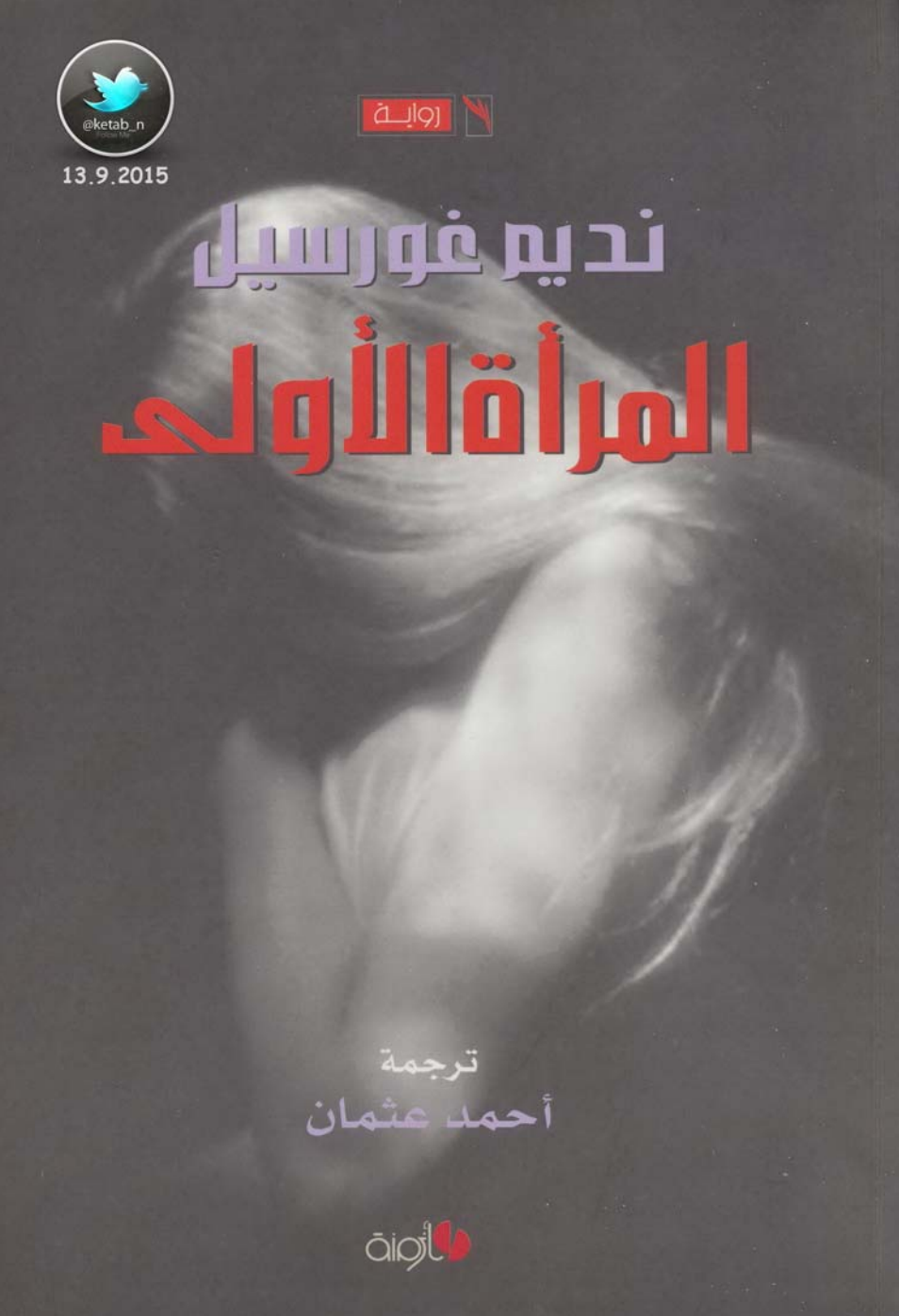

ترجمة

أحمد عثمان

أزمنة

رواية

نديم غورسيل

المرأة الأولى

ترجمة

أحمد عثمان

أزمنة

Twitter: @ketab_n

المرأة الأولى

Twitter: @ketab_n

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب

Nedim Gursel

La Premiere femme ,

ed. seuil, 1994, Paris

نديم غورسيل

المـرأة الأولـى

ترجمة : أحمد عثمان

الطبعة العربية الأولى 2008

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية ٢٠٠٧/٨/٢٤٣٣

ردمك ISBN 978-9957-09-306-8

حقوق المترجم محفوظة

أزمنة للنشر والتوزيع

تلفاكس : ٥٥٢٢٥٤٤

ص. ب : ٩٥٠٢٥٢ عمّان ١١١٩٥ الأردن

شارع وادي صقرة، عمارة الدوحة، ط ٤

E.Mail:info@azminah.com

Website:http://www.azminah.com

فوتغراف الغلاف: Micheal Depraida

تصميم الغلاف: أزمنة (إلياس فركوح)

فرز وسحب الافلام: Dots

الترتيب والإخراج الداخلي: أزمنة (نسرين العجو، إحسان الناطور)

الطباعة: مؤسسة مصطفى قانصو للطباعة والتجارة / بيروت

تاريخ الصدور: كانون الثاني/ يناير/ 2008

Twitter: @ketab_n

هذه رواية تحكي تفاصيل يوم واحد في حياة مراهق.. طالب بمدرسة داخلية في اسطنبول، من أصل ريفي أناضولي.. مسلم، هذا اليوم يمثل نقلة هائلة في حياة المراهق المسلم حيث يتوجه إلى ماخور فيما أمه تحتضر بمسكنهم الصغير...

ثم تواصل الرواية تتبعها للمسارات الجديدة في علاقاته. بعد أعوام في باريس تتبدى أمامه وجوه نسائية، العاهرة ، الأم، بطلة أسطورة تركية قديمة، واسطنبول «تلك الأرمل البكر رغم الأزواج الكثيرين»... «المرأة الأولى» كما كتب نديم جورسيل: «حكاية وجه مدور وشاحب، والتجربة الجنسية الأولى، والإقلاع في آن معاً، مثلما هي حكاية المدينة الأولى، القلق الأول، الرحلة الأولى، رؤية البحر الأولى، الصوت الرقيق الحاد مثل تمزق الشيطان، تاريخ اسطنبول، الخوف الأول، الخطيئة الأولى، الكلمة الأولى في آن واحد. بالأخص الكلمة الأولى» .

نديم جورسيل... روائي وقاص تركي معاصر، من مواليد العام 1951، يكتب بالتركية والفرنسية في آن معاً. بعد حصوله على شهادة البكالوريا في ليسيه اسطنبول 1970، تابع دراسته في باريس حيث أعد درجة الأستاذية في الآداب المعاصرة ، ثم أطروحة الدكتوراه في الأدب المقارن تحت إشراف ايتيامبل 1979. يعيش في باريس ، يدرّس في مركز الأبحاث (CNRS) والمدرسة الوطنية للغات والحضارات الشرقية .

حازت روايته «المرأة الأولى» في عام 1986 على جائزة اييكسي لمساهمته

Twitter: @ketab_n

في التقارب بين الشعبين التركي واليوناني، وعلى جائزة أحسن قصة المقدمة عن راديو فرنسا الدولي في عام 1990، وعلى جائزة الرقيقة الذهبية في مقدونيا عن مجمل أبحاثه في العام 1992.

من نتاجه الروائي والقصصي: «صيف طويل في اسطنبول» ، «الترام الأخير» ، «فندق الرغبة» ، «رواية الفاتح» ...

ومن نتاجه النقدي: «ناظم حكمت والأدب الشعبي التركي» ، «منظر أدبي على تركيا المعاصرة» .

(المترجم)

Twitter: @ketab_n

إلى أمي

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

حينما انطلق إلى الشارع ، تفجر صخب المدينة بغتة . طنين الباصات ، صفافير ، كوابح ، جلبة الأصوات الإنسانية . اجتاز قارعة الطريق وسلك ممر الزهور . مخترقاً حشود السبت ، وجد طاولة . مكث واقفاً ، دون أن يقفز على المقعد . خائفاً ، وجلاً . تتردد ضجة الشارع أمام واجهات المساكن المعتمة ، وتتجه إلى المطاعم التي تنشر رائحة البطاطس المقلية ، بلح البحر المقلي ، «الأسقاط» المشوية . طلب بيرة ثم تناول ، من جيب معطفه ، علبة سجائر رخيصة . قبل أن يحطها على الطاولة الرخامية ، تركها للحظة في يده ، وفض الغلاف السيلوفاني بعناية وألقاه أرضاً وسط أعقاب السجائر . كأنه يبحث عن عود ثقاب ، عيناه مثبتتان على مرآة جانبية كبيرة . رأى شعوراً لزجة ، وجوهاً ضاحكة ، رجالاً ذوي شوارب ، سكاكين ، مشهيات ومقبلات متراصة على البراميل والطاولات الرخامية البيضاء . جمبري ، كبد مطهو على الطريقة الألبانية ، بلح بحر مقلي ، جبن أبيض ، فاصولياء بالصلصة ، شرائح المخ ، سلاطة الجرجير ، ألوان حمراء ، بيضاء ، خضراء . رائحة غادية ، تمتزج الألوان وتتباعد . فجأة ، وسط الزحام الشديد ، شعر مرة أخرى بهذا الدوار الغريب يستولي عليه ، صاعداً بداية من جوف معدته إلى صدره ، ثم إلى حلقه . يعتقد أن في قلبه تعباً . في الخليط الذي يشكل فيه بياض البصل مع خضرة الجرجير والبقدونس ، تغير اللون في الصحون الطافحة بالكبد المطهو على الطريقة

Twitter: @ketab_n

الألبانية ، والرؤوس الأرجوانية اللون والبطون البيضاء للجمبري الضخم ، هناك وجه شاحب يتضح ، يعتقد أن في قلبه تعباً . في هذا السبت ، بعد الظهيرة ، تمتزج الألوان ببعضها البعض في المرآة السوداء ، من الدخان ، كي تصبح سائلاً صديدياً ، بركة من القيء ، كيف تتكشف احساسات أخرى ، حالات أخرى من الدوار المزعج ؟ ببساطة ، أن في قلبه تعباً . في الضوء الرمادي الضعيف ، أخذ يتابع عينيه ، وجنتيه اللتين تسحان عرقاً ، جبهته التي تقرأ ليالي الأرق ، السيجارة غير المشتعلة في فمه ، «الأسقاط» المشوية التي يأكلها لتوه غير منظفة بصورة دقيقة . وبدون شك ، زيت طهو بلح البحر زنخ . رواد الممر من السكارى ، العجائز ، الهاربين الثملين كما يجري يومياً من المدرسة الداخلية لم يلحظوا أي شيء البتة . تدريجياً ، تعفنت المشهيات والمقبلات . لم يعد مذاق الكحول مثلما كان في الماضي . يا للفرح ، تتبقى البيرة . ترغي كما بول الحصان ، البيرة بيرة على الدوام . على حين غرة ، أثارت بقاياها اشمئزازه . لديه نظرة حصان أسود ، ملتحف بالعرق ، عضوه متدل إلى الأرض .

فجأة ، يسيطر عفن البول على الفوحان المألوف في الشرب ، الروائح المتصاعدة من بلح البحر المقلي المخلوط بالدقيق و«الأسقاط» الملفوفة في الورق المزيت . صورة الرجال الثلاثة الذين يتبولون على الحائط في شارع المواخير ، وقد أعطوا ظهورهم للمارة . يتوهم مزاح الأجلاف الثلاثة المصطفين على طول الحائط ، تحت النقش : (من يتبول هنا ليس سوى عديم الخلق) «آه! أنا محتاج إليه ، أطرح أرضاً من يقف في الجانب الأيمن المتطرف ، لقد طليت الحائط بالجير!» ، وغالقاً فتحة بنطاله ، لمس أسفل بطنه بيديه .«ارتحت أيها الفتى ، فالنقطة الأخيرة ، دوماً ، من نصيب السروال الداخلي !» . الآخرون يفعلون مثله . «الآن نحن مستعدون لاحتساء شراب آخر» ، هكذا صرح أحد الأصدقاء الذي يرتدي قبعة على رأسه . وبخفة فجائية لجسد ضخم نوعاً ما ، يقفز إلى جانب كي يتجنب البول المنساب على قارعة الطريق . يفتح طريقاً ، وسط الزحام الشديد للمارة أمام الباب الحديدي : «ادفعوا ، أيها الصبية ، لكل فرد دوره

Twitter: @ketab_n

لكي يحسدا!» ، صاح ، دفع رفاقه ، وقد نجح في أن ينزلق حتى عتبة المشرب . هنا ، ساحباً قبعته ، يلزق وجهه في الواجهة الزجاجية .

❖ ❖ ❖

بمشقة ، دلف إلى شارع المواخير ، كارهاً هذا المشهد ، حتى أنه ود أن يعود أدراجه إلى خارجه ، دون أن يتطلع إلى نوافذ المساكن القديمة التي تتابع على طول الردب ، الأجساد المحنكة ذوات البشرة البيضاء ، النهود اللدنة للفتيات اللائي يراقبن الزبائن ، وهو يذكر حكايات زملائه . انحدر من شارع يوقسقالديريم إلى جسر جالاتا . عارضاً وجهه إلى رياح الجنوب ، استنشق طويلاً رائحة البحر . هنا ، العالم أمامه . بواخر البوسفور تصل ثم ترحل ، القاطرات تمضي تحت الجسر ، مداخنها مكظومة . النوارس تخفق أجنحتها أعلى القوارب . العالم رائع . البواخر البيضاء الراسية على رصيف توفاني ، المتقاعدون الذين يصطادون ، الحمام الذي يطير أعلى ساحة المسجد الجديد إلى أن يقف على القباب ... كل شيء ، نعم ، كل شيء رائع حتى المحصنات اللائي يتجولن فيه بدون أن يلقين أدنى نظرة عليه . لم يخط أبداً من قبل في شارع المواخير ... أبداً ... الرجل الجالس على الطاولة المقابلة عب نصف زجاجته من البيرة على دفعة واحدة ، ثم ، بعد أن مسح شاربه بيده ، تجشأ . جاثماً على مقعده ، مريحاً ساقيه . تتأرجح ساقه اليسرى في بطء أعلى الأرضية المغطاة بأعقاب السجائر . نظر إلى حذائه الأسود المتأرجح . حذاء عتيق ملوث بالوحل . في بطء ، تتأرجح ساقه في الفراغ ، رائحة غادية . أعلى نشارة الخشب ، بقايا المشهيات والمقبلات ، الأوراق الدهنية . حذاء مخطط في الخدوش ، متهرئ عن مياه المطر ، ذو لون كابي بمستوى شعيرات ساقه التي تتجاوز بنطاله . كان مستقلاً ، ووحيداً . هدأت حركة ساقيه ثم توقفت فجائياً . في نفس اللحظة ، سمع الرجل يتجشأ عندما انفصلت نظرته عن الحذاء وارتفعت إلى الطاولة الرخامية ، أنشأ يتطلع إلى الجمبري الذي يملأ الصحن

Twitter: @ketab_n

الكبير ، قطع الجبن الأبيض السابح في مرق الفاصولياء مرة ثالثة ، أحس بتعب في قلبه . دون أن ينتظر البيرة التي طلبها ، يندفع خارجاً من ممر الزهور . في زحام الشارع ، يبحث عن زاوية كي يشعل سيجارته .

الآن ، واقفاً أمام بائع اللوز العجوز ، أخرج علبة ثقابه . الرياح تداعب شعره القصير القذر . ستمطر السماء حالاً . خلت شوارع باي أوغلو المتلاصقة من المارة ، فرأى المطريات تنفتح ، والمارة يقفون أمام الواجهات الزجاجية المضاءة وبنايات المكاتب الصاخبة . ربما يكون الحال أفضل هنا . بعد كل شيء ، يشعر تلميذ المدرسة الداخلية الضائع وسط حشود السبت مع معطفه المدعوك بعزلته وقتما اقترب هطول المطر . إذ أنه يستطيع الدخول إلى دار سينما ، أو أيضاً يهبط إلى جالاتا عبر المنحدر الوعر ، من ناحية الناصية ، بينما استولى عليه فتور غامض ، وحل لزق يتناثر عليه ، تاركاً مشروعه ، عائداً على نفس إيقاع خطواته ، يلجأ إلى المدرسة لكي يراجع دروسه . مع ذلك ، كلما صفرت الرياح ، حملت ثلوجاً معها . في الأعلى ، على طول الشارع الملآن بالبنايات العالية ذات الواجهات المعتمة ، تصفو السماء . هذا الذيل من الضوء الرمادي الذي يصل إلى حجم باطن اليد بهدوء وبشكل غير محسوس . غير أنه جزء مجبور . بالتأكيد ، سوف تمطر في المساء . طوال الليل ، سيطقطق المطر على سقف عنبر النوم . وربما غداً ، خلال الأحد الطويل ، سيبلل الساحة الداخلية للمدرسة ، زهور الحديقة ، أشجار الزينة ذات السيقان الضخمة .

تحت سقيفة ممر الزهور ، أشعل سيجارته في ركن ، وعب نفساً عميقاً . منجذباً إلى اقتفاء أثر الحشود المسرعة في الشارع ، السيارات الزاعقة ، عجلات الترولي باص التي تدور عند مفرق طريق جالاتا سراي ، السيارات السوداء ، الحمراء الصفراء ذات الطلاء المقشر تمضي سريعة قربه في موجة من الألوان وضجة مدوخة . إذا رفع رأسه ، سوف يلاحظ ، في الأعلى ، الساعة العتيقة واليافطة : مدينة بيرا . غير أنه لم ينظر إليها ولم يهتم بالفوضى التي تحيطه ،

Twitter: @ketab_n

لبث هنا ، تائهاً ، وسط التدافع . ثم رحل . سيجارته في يده ، غاطساً في الطمأنينة ، في حلم مبهم ، بالجري ما وراء هذا العالم المشوش والعصي على الفهم الذي ينشط حوله . يحاذي الواجهات الصارخة : أزياء الشتاء ، جوارب ، سترات ، سراويل ، معاطف ، مطريات ، غرف نوم ، ثرايا من الكريستال ، أحذية ، فوتيلات جلدية لامعة ، شمعدانات فضية ، إسورة ذهبية ، كل شيء للبيع . إلى أين ؟ إلى أين ستحمله قدماه المتعبتان ، جسده القلق ، وجهه المنقط ببثور حب الشباب ذي الملامح الطفولية ؟ يمشي وحيداً وسط المارة . أحياناً ، يصطدم برجل ممسوس ، أناس يقفزون من سيارات الأجرة وهي سائرة ويركضون إلى الطوار . متوقفاً فماشياً ، سريعاً طوراً ، بطيئاً طوراً آخر ، ينعطف ، شبيهاً بقطعة خشبية تتلاعب الرياح بها . واصل طريقه ، محاذياً حافة الشارع .

على طوار شارع الاستقلال الأيمن ، اتجه نحو محطة القطار . توقف للحظة أمام الزقاق الذي يملك تاجر المضخات محلاً فيه . خارجاً من حلميته ، أدار عينيه إلى اليمين ، باتجاه الفرجة المظلمة . يتعالى صوت طويل أمامه في ثانية ، يحلم بإمساكه والصعود إلى تيبيباشي وهو يسلك أحد الشوارع الصغيرة التي تفضي إلى الزقاق . يتخيل نفسه هناك ، منتظراً ، وسط الرياح ، قدوم باص تيبيباشي . هل يتوجه إلى مقهى ينيقاني المطل على ضفة البحر؟ أو يذهب إلى آتاقوي ، لدى صديقه أحمد ، زميله في الفصل الدراسي ، ويتحدث معه متكئاً على فوتيل الصالون ، ويشم العطر الزكي الذي تتعطر أخته الكبرى به ، وأيضاً يشمه خلال ساعات الدروس ، في الحديقة ، في عنبر النوم؟ ابتداء من تيبيباشي ، تنفتح رؤية بعيدة وسعيدة لتلال القرن الذهبي الصغيرة أمام نظره ، تحته ، تمتزج صرخات الأطفال الذين يلعبون بالكرة مع زعيق الباعة الجائلين ، الجلبة المعتوقة المتصاعدة من دار ترسانة قاسم باشا والمساكن القديمة . يقول في نفسه أنه لا يستطيع أن يتحمل مياه القرن الذهبي الثائرة ولا سحب الأمطار الثقيلة التي تشتتها رياح الجنوب ، ومنذ قدومه إلى هذه المدينة يخنقه قلق كريه ، على وجه الخصوص آخر الأسبوع بدلاً من الدخول إلى الزقاق الذي

Twitter: @ketab_n

انفتح أمامه ، ربما أراد أن يرتقي الدرج الذي يجذبه ، بالضبط ، بعد مؤسسة المضخات . . . بواسطة الدرجات الحجرية ، يصل إلى ساحة ، آخرها باب ذو قبضة حديدية ، تفتت نقشه التصويري . هذا الباب ، يذكره بآخر . يود أن يفتحه ، يدخل ، مجتازاً ضوء قرص الدرج الشديد ، في الطابق الأول ، ينزلق إلى الغرفة القابعة في آخره ، يقفز على السرير ، يستنشق رائحة الملاءات البيضاء ، الوسائد ، الأغطية ، أكوام الملابس المكدسة بعناية في الخزانة ، ويرقد على الصوفا قرب آلة الحياكة ، ينام أياماً وأسابيع طويلة . في الواقع ، إذا ارتقي الدرج وأدار القبضة الحديدية ، من المفروض أن يجد نفسه في مطعم «ريجنس» . يرى فوتيلات حمراء ، طاولات كبيرة تجلس إليها نساء جميلات انتهين من تناول طعامهن بصحبة رجال يرتدون البزات الكاملة ، متأنقين في ملابسهم ، وعلى يمينهم صورة آتاتورك بالبزة الرسمية السوداء الضيقة . أثارت الدكة الخشبية ، الموضوعة قبالته ، اهتمامه . صمت الأمكنة ، الخادمات العجائز ، المفارش التي تغطي الصحائف ، المناخ الثقيل لهذا الديكور الشائع الذي يعود إلى الحرب العظمى . . . هذا كله أثار ضيقه لكنه تابع خطوه دون أن يرتقي الدرجات . يلقي بسيجارته إلى الأرض ويدهسها بقدمه . متنقلاً إلى الطوار المقابل ، يتجه نحو محطة القطار .يمشي تحت بواكي البنايات الحجرية . يتوقف أمام مبرة سانت ماري . على اليسار ، الدرج الهابط إلى بوابة الكنيسة ، المنتصبة بغرابة . واقفاً على قاعدة تمثال السيدة العذراء التي تفتح ذراعيها ، أعلى الشارع ، تخيل أن تفضي خطواته إلى هاوية . أو ربما إلى خزان . في خياله ، تختلط حوائط الكنيسة المضاءة بالشموع بحوائط الخزان البيزنطي العتيق الرطبة . إذا دفع البوابة ودلف إلى الداخل ، ينبثق ماء بارد ، ألفي ، أمامه . رغبة مجنونة تجتاحه ومثلما ثمالة تترسب تفرزه في الخلاء الذي تضيئه شعلات المصابيح المترنحة . غير أن المياه ستكون باردة ، والسيد المسيح على الصليب ، أمامه ، مثبط الهمة . على حين غفلة ، يقطع صريف مكبح حلميته . حوله أناس يسرعون الخطى صوب امرأة ممدودة في الشارع في لحظة ، أصابه القلق .

Twitter: @ketab_n

وبينما تبدأ استفهامات من نوع : سيارة إسعاف بسرعة . . . هل ماتت؟ . . . لا ، مصابة . . . لم تزل حية . . . إنها شابة . . . لا يلمسها أحد . . . يجب أن يتم القبض على سائقي سيارات الأجرة . . . ابتعدوا ، ابتعدوا . . . أهناك طبيب لأجل الإسعافات الأولية؟ . . . حاذى الواجهات الزجاجية ، المحال المزدحمة ، الأزقة الوعرة المنحدرة التي تشرف على توفاني ، حتى بلغ محطة القطار .

حينئذ ، وحيداً أمام الوراقة التي تقع في ركن الشارع ، يشعر ، للمرة الأولى ، بهذا الغثيان الذي يحيطه منذ شهور في ثانية ، ينوي السفر إلى قراقوي بالقطار ، ومن هناك ، بعد أن يقفز إلى سيارة أجرة على وشك الرحيل إلى آق سراي ، يتجه إلى مقهى ينيقابي . لا ، سوف يمشي حتى شارع يوقسقالديريم ، آخذاً طريقاً شديدة الانحدار تتدحرج أمامه دون أن يتمهل للنظر إلى لوحة مدرسة الدراويش الجوالين ، المقبرة المقامة في المساحة ، الأشجار التي تعرت من أوراقها ، يمشي في السوق ، ثم ، تاركاً المطاعم القذرة وحوانيت المصنوعات الخشبية والأبسطة والمسجد الصغير ذا القبة الحجرية خلفه ، يلقي نفسه في حي البنايات الواطئة . غير أنه لم ير الحوائط الرطبة الموروثة من الجنويين ، ولا المساكن الخشبية ذات المشربيات ، ولا أزقة الحي اليهودي . يسرع متجهاً إلى اليمين ، نحو شارع يوقسقالديريم . يداه تتأرجحان ، يهبط المنحدر بخطوات راكضة كي ينفذ قراراً اتخذه منذ زمن ، قراراً منسياً ، تذكره فجأة ، لا يستطيع أن يتجاهله ، يتجنبه ، ولا حتى أن يستعيد ، دون أي نظرة تجاه العرافات ، الحانات ، محال الشرائط ، صحون المشهيات والمقبلات المعروضة بألوانها الصفراء ، الخضراء ، الزنخة ، وهو يشم ، بعمق ، مع كل خطوة ، هذا العالم ، عالم القيء ينسال في أوردته ويخفق ، في نفس اللحظة ، مثل قلبه . يبلغ شارع الآبار . ومنه ، إلى شارع المواخير .

❖ ❖ ❖

والجاً الزقاق ، أحس أن الجميع يحدق فيه . يهبط المنحدر متسللاً كمذنب .

Twitter: @ketab_n

هناك جمع من الناس أمام المساكن المتراصة من ناحيتي الدرب . نفاية ذكورية ترسل عرقاً . شباب ذوو شوارب رفيعة ، متشردون ، فلاحون ، فتية توفاني السيئون محتشدون أمام الأبواب وينظرون إلى الداخل . يمشي خطوات ، يشق لنفسه طريقاً وسط جمهرة من الرجال ، ثم واقفاً إلى جانب سوقي يتطلع إلى ما وراء الباب الزجاجي ذي القضبان المطلية باللون الأزرق . بداية ، لاحظ عجوزاً ، نهداها متدليان ، ضخمة كما القربة . جالسة على مقعد قرب المدفأة ، تنزل سروالها الداخلي الفيروزي إلى ما تحت ثنايا بطنها . انتفاخات دهنية تطفح عليها . ترتدي حلقتين كبيرتين في أذنيها . تحول نظرها يمنة ويسرة . خصلات ملونة بأصباغ عدة ، قذرة ، هاربة من الوشاح الذي يغطي كتفيها . فمها المفتوح نوعاً ما يكشف عن أسنانها الذهبية ، جسدها المنتفخ شحماً مسترخ على خشبة المقعد ، تنضح عرقاً على إيقاع لهاثها . قربها ، تقبع فتاة خمرية اللون . تعقد ساقيها البيضاوين وتتطلع إلى الزبائن بعينين غافلتين . نقول أنها تحلم . عيناها محمولتان إلى ما وراء هذه النظرات اللزجة ، الشرهة ، التي تحوم قبالتها .

كأنها تحيا خيبة أمل ، ذكرى . على حين بغتة ، نهضت ، تقدمت حتى منتصف الصالون ، وقفت أمام المرآة وأنشأت تمشط شعرها ، ذراعاها جميلتان في انعكاس الضوء . شعرها الأسود يسقط على وركيها ويغطي جزءاً من جرح المدية الذي سطر ظهرها ، تتأمل نفسها ، لثانية في المرآة تتفحص شفتيها الأرجوانيتين الغليظتين ، وجنتيها البارزتين ، نهديها غير الكبيرتين ، كحبتين من التين الجاف . ثم ، بخفيها في قدميها ، تتجه إلى الدرج الذي يؤدي إلى الطابق الأعلى . فيما يمر أمام اللافتة : 10 جنيهات للمرة الواحدة ، يسمع أغنية فاترة . تملأ طلاوة ذرى الخيال البعيدة وهوى الرياح الصالون . نسور بأجنحة ضاربة إلى الصفرة تطير على الصخور عمودياً . مصابيح غازية تضاء في القرى المبنية مساكنها بالآجر ، حيث لا يستطيع امرؤ أن يصل إليها إلا على ظهر الحمار

Twitter: @ketab_n

تدريجياً ، فترت الأغنية عن ذي قبل ، وراحت تتلاشى ، مع فرقعة الخفين ، أعلى الدرج .

«يا امرأة ، إنها تلتهمه! آه ! اسمع صوتها ومت!» ، تنهد جاره ، وضحك ساخراً ، وهو يكشف عن أسنانه المتسخة . ثم ، واليد في جيبه ، بدأ يداعب أسفل بطنه . وهكذا ، مضى الشاب شطر المسكن المجاور . ثانية ، يرى نسوة نصف عاريات ، جالسات على أريكة في صالون مزين بالمرايا ، ودرج حجري يفضي إلى الطابق الأعلى . المسكن الثالث مرتاد إلى حد ما . النسوة يخرجن ويدخلن متلاحقات من الغرف المطلة على الرواق الطويل الذي ينفتح على الصالون ، ويشتمن كما السوقة ، وهن يخفين أعضاءهن . يواصل هبوط الزقاق الذي يرسم قوساً يقف أمام كل مسكن ، حتى بلغ المقهى الذي يقع آخر الزقاق ، بمدفأته المشتعلة وطاولاته الخشبية التي يجلس عليها رجال غير حليقي الذقون ، وعلى رؤوسهم قبعات ، يلعبون الكارت أو النرد . يرى نسوة شبه عاريات جالسات على المقاعد والدرجات الحجرية المفضية إلى الطوابق العليا ، شباب ، عجائز ، صغيرات ، كبيرات ، سمينات ، نحيلات ، وقد طلين وجوههن بالمساحيق أو لا ، فتيات ذوات أعين زرقاء ، سوداء أو كستنائية . البعض يضحكن ، البعض الآخر يتحركن لكي يجذبن الزبائن ، البعض الثالث يدخن وهن يمطن شفاههن غضباً . غالبيتهن مثبطات الهمة ، كأنهن يبحثن ، بين الرجال المتراصين على الأبواب ، عن وجه مألوف ، عن حنو دافئ . طويلاً ، يتسكع في شارع المواخير . يرى فتيات هزيلات ذوات سيقان دقيقة نحيلة ، سيدات بدينات ، ضخمات مثل الغيلان ، عجائز تائبات ، أذرع مغطاة بأساور ذهبية ، نهود رخوة ، أعين واسعة مرهقة ، وجوه بشعة ، أجساد ذابلة ، ظل مرتبكاً أمام تعدد هذه الأجساد المعروضة . لقد استفاقت الرغبات اللا محققة لأعوامه الستة عشر . يشعر بوحدته . يود أن يهرب من شارع المواخير ، أن ينسى هذه المساكن العتيقة ، الماثلة على بعضها البعض كأنها ستنهار ، الخطوة المستسلمة للفتيات الداخلات الخارجات إلى وهن

Twitter: @ketab_n

الغرف ، السباب الممتزج بفرقعات الخفاف . يريد ، أبداً ، أن يمسح من ذاكرته الرؤية المستقرة لهذا العالم المتحلل . ينشأ يصعد الزقاق خارجاً . يعمّ الهرج والمرج المكان كله . رغم جهودهم ، لا يدرك الدرج ، إذ أن الحشود التي تسد الدرب يجذبه إلى أسفل ، نحو المساكن البعيدة المتروية .

يمشي ببطء ، كما يجري في فيلم محقق بالتصوير البطيء ، وفي كل مرة ، يقترب من المدخل ، يدفعه التيار إلى آخر الزقاق . حشود مثل مستنقع تحاصره من كل جانب . يحاول أن يتقدم بين الأحذية الموحلة ، السراويل المدعوكة ، المعاطف ، الأذرع ، السيقان والوجوه المصابة بالمدي ، الضامرة ، المنهارة بشكل غير محسوس . قبل أن يستطيع بلوغ باب المدخل الذي بلغه وهو يسح دماً وماء ، يرتد إلى الأسفل ، أمام الصالون المزين بالمرايا الذي ترن فرقعات الخفاف بين جنباته . بمشقة ، يتشبث بغصن ، بأشواك رفيعة منبجسة من تجويف بمسكن ، وسط الأمطار المنهمرة . غير أن ذراعيه كانتا مفتوحتين على وسعيهما ، وقد أصبح الوخز مبرحاً في عموده الفقري لما تحررت يداه المصابتان ، ومن جديد ، بحركة جسورة هذه المرة ، يسعى إلى الإمساك ثانية بالغصن ، وفور أن ثقب الألم ظهره شعر بأصابعه تتفكك ، ثم جسده ينزلق ، بأقصى سرعة إلى الأسفل . ينضح عرقاً . على آخر نفس ، أنشأ ينضح عرقاً مثل جسد يستحم . يصارع بصورة أقل عن ذي قبل كي يدرك المخرج مستسلماً للتيار ، ينتوي ، دون أن يشعر بخيبة أمله ، أن يربح الهدوء في الفرجة المجاورة . وهكذا ، سار على غير هدى حينما سمع قرقعة عالية . فجأة ، يرى وجوهاً تتدفق تبتعد عنه . والآن ، يتذكر أنه في هذه اللحظة ، سقط في هوة ، إذ أن في سقطة بلا قرار يتطاير جسده النحيل في الفراغ مثل رائد فضاء في حالة انعدام الجاذبية ، ثم ينتفض ناحية البحر المعتم الذي تضرب أمواجه الصخور قرار الهاوية .

❖ ❖ ❖

حقيقة ، لا يعرف كيف وجد نفسه في هذه الغرفة الصغيرة ، الحقيرة ، ولا

Twitter: @ketab_n

أي طريق سلكه قبل أن يغطس عارياً على غطاء الفراش الملوث حيث تتضافر الورود الحمراء ، أوراق العنب وزهور البنفسج . مرتبكاً ، يتذكر أنه اندفع إلى صالون هذا المسكن ذي القضبان المطلية بالأزرق ، حيث يتوقف أمامه ، مقترباً من الفتاة ذات الساقين البيضاوين ، يتعثر ، يقع على الأرض ، ينتصب واقفاً تحت حماية وجه ممتلئ ذي أسنان بيضاء انحنى عليه ، ثم دوى صوت في أذنيه لما ارتقي الدرج : «اذهب إلى الغرفة القابعة في آخر الرواق ، اذهب إلى الغرفة القابعة في آخر الرواق ، اذهب إلى آخر الغرفة القابعة في آخر الرواق . . . » . أيعرف لماذا سقط أرضاً لما اقترب من ذات الساقين البيضاوين ـ ، لماذا انحنت الطلعة المنتفخة للمرأة البدينة عليه بدلاً من وجه ذي شفتين أرجوانيتين ممتلئتين ـ ، لكن العاهرة العجوز التي صعدت إلى الطابق الأعلى وهي تقول له قبل أن يدخل إلى غرفة السقف الحقيرة ويتمدد على الفراش :

«انتظر قليلاً يا صغيري» . كيف خلع ملابسه ؟ في أي لحظة علّق ملابسه على المشجب ؟ منذ كم دقيقة ؟ كم ساعة ؟ كم يوم تمدد على هذا الفراش القذر؟ يثبت نظره إلى الحائط المقابل ، لا يعرف شيئاً البته . الشيء الوحيد المؤكد ، أنه عار على فراش غرفة بلا نافذة . كي يركز انتباهه ويجد معنى الحقيقة ، جاهد أن يفك رموز الكلمات المدونة على الحائط : «ساقي المطرقة . . . رضا الجندي . . . رضا صغيري سوف يمضي كل شيء . . . نعم ، سوف يمضي بقوة عملك» . في الزاوية المكسوة بأنسجة العنكبوت ، قلب يخترق سهماً مرسوماً يري زاغاً ذا ريش أسود يجرح بمنقاره المدبب القلب المرسوم بالأحمر . دم ساخن ، ثخين ، يتساقط نقطة على الأرض مع كل ضربة من منقاره ، يسيل الدم أكثر قوة ، ينبجس على البلاط ، يتسرب على الباب ، ثم يجري على الدرج . يفقد وعيه . يستسلم للهذيان ، لحلم غامض وبعيد .

❖ ❖ ❖

مرة أخرى ، في صالون الماخور ، يتطلع إلى المرأة ، بعينين خائفتين يرى شعر

Twitter: @ketab_n

الفتاة الخمرية الطويل ، الواقفة أمام الباب . يعرف كتفيها العاريين ، جرح المدية الذي يسطر الظهر . يترشح الدم منه . يرى نقاط الدم المتخثرة في المرآة ، ثم تتضح درجات الأحمر ، التي تميل إلى الأصفر والأخضر والأبيض . يرى خليط الألوان يخفق في تماوج بطيء مثلما يشكل أبيض شرائح البصل مع أخضر الجرجير والبقدونس واللون الصدئ للصحون الطافحة بالكبد على الطريقة الألبانية ، الرؤوس الأرجوانية وبطون الجمبري البيضاء . وسط هذا التقيح الجرحى ، هذا القيء المقزز ، يتبدى وجه مستطيل وشاحب . وجهه . ثم تتلاشى الألوان عن المرآة . يجتاز الصالون ويرتقي الدرج الحجري . ثم قرص الدار الغارق في الضوء الساطع ، يوارب باب الغرفة القابعة في آخر الرواق . بطيئاً ، ينزلق إلى العتمة . للحظة ، يتسع الصمت ، بلا حركة ولا تنفس يجب أن يكون الجميع ميتاً . يشعر بقلبه يخفق بأقصى سرعة . ما خلا دقات قلبه ، لا ضجة في المسكن الكبير مع ذلك ، لم يمض وقت طويل ، حتى سمع من فراشه صوتي والديه اللذين يتحادثان . يتعاتبان بأعلى صوتيهما . ثم يسمع نحيب أمه وصوت والده الأجش الذي يرعد مثيراً اضطراب الأعمدة الخشبية .

تدريجياً ، تخف الضجة ويكف النحيب . يكور جسده تحت الأغطية ، كقنفذ مرتجف في الثلج . ينتظر أن تأتي أمه مثل كل مساء لكي تضمه . كل مساء ، قبل أن ينام ، يتبدى من كوة الباب ، تتلو أمه دعاء قصيراً بكلام غير مفهوم ، تهمس في الضوء الخفيف كي تبعد العين الحاسدة ، ثم تضمه وتمشي بخطوات صامتة مثلما قدمت ، دون أن تنسى ترك الباب مفتوحاً نوعاً ما . طال انتظارها فترة طويلة . لم يظهر وجهها المدور والشاحب عند الباب . هكذا نهض عن فراشه واتجه ، على أطراف أصابعه ، ناحية غرفة والديه . ببطء ، فتح فرجة من الباب . لم يلحظ بداية سوى خيالين ضخمين على الفراش . يتخبطان ، يحتضنان بعضهما البعض . لما اعتادت عيناه على العتمة ، عرف جسد والده العاري . لقد قفز على أمه وهو ذا يوجعها . تتأوه عارية . الفخذان منفرجتان ،

Twitter: @ketab_n

تشد جذعه المشعر بذراعيها إليها يرتعشان بعض الوقت . مسرعاً في حركته ، اقتلع والده من آهة تأوهات عنيفة . حينئذ ، مررت يديها على ظهر زوجها ، وعلى شعره . ثم تشبثت بأعمدة الفراش . أرسل والده خرخرة غريبة اختلطت بصرخات أمه ، سكنت حركاتهما ، ظلا ملتحمين ، عاريين . اجتاحه الرعب لما واتته فكرة كونهما ميتين . على الفور ، ابتعد . عبر صالون الطابق الأرضي ، صعد الدرج ، ووجد نفسه في ضوء صحن الدار الساطع . الآن ، ملتجئاً إلى غرفة آخر الرواق ، يسمع خفقان قلبه . نعم ، يجب أن يكونا ميتين وفجأة تنبه إلى انه وحيد في المسكن الواسع . ترتجف يداه وقدماه العارية برداً . يتسلق عدة السرير ويتكور في ركن من ركام الأشياء المكدسة ، ميز ، بصعوبة ، بين ذراع آلة الحياكة ، الأثر المعتم لصوان السفرة العتيق ، الوسائد المثلثة على الصوفا . طويلاً ، وطويلاً انتظر في العتمة . بعد ذاك ، أصبح ضحية خمود بارد ، كابوس وقتي ، وسمع ضجة خطوات . تخيل أن أحداً يخطو على أرضية صحن الدار ويدخل إلى جميع الغرف ، مقترباً من مخبأه بخطوات لاهثة ينكمش على نفسه في مرقده . سمع الألواح الخشبية تطقطق تقترب الخطوات . من ؟ مادام أن والديه توفيا ، من يستطيع أن يمشي في صحن الدار بخطوات لاهثة؟ ملك القراصنة ؟ أو سلطان الجان ؟ يرتدي ملك القراصنة قرطاً ذهبياً في أذنيه . إنه ملك البحار السبعة . ظهرت أمامه ملابسه والعصابة السوداء التي يلفها حول رأسه مسدساته المتدلية بحزام من بطنه ، ويلوح بحسام . أسنان ذهبية تلمع في فمه . خنجره المرصع بالجواهر يتلألأ . كم من مرة غاب ملك القراصنة عن فراشه ؟ منذ تلت أمه دعاءها ، وهمست في الضوء الخفيف وهي تغادر غرفته ، تتركه وحيداً في غرفته . كم من مرة ، قبل أن ينام ، لم يخشه وهو يلوح بحسامه ! يخرج من حميلته القرمزية أكياس ذهب تنزلق تحت الوسادة . وفي الغد ، عند يقظته ، بما أنه لم يكن وديعاً ، تتحول السكاكين إلى سنابل شعير . وفي الغد عندما استيقظ ، وبما أنه لم يكن وديعاً ، تتحول السكاكين إلى سنابل شعير . ملك القراصنة شرير . غير أن صديقه

Twitter: @ketab_n

الوحيد في المساء ، بعد رحيل أمه ، يزوره ويترك تحت وسادته أحجاراً كريمة من مملكة البحار السبعة . لكن أحياناً ، الحسام ممتشق ، يود أن يقتله . سجن ابنته الوحيدة نيلوفر في حصن وسط جزيرة ، تحت الحراسة . خلال الليل ، يفتح الباب بحزمة المفاتيح التي تتأرجح عند خصره ، يصعد إلى نيلوفر ويتأمل جمالها ، في ضوء القمر . غيوراً من الجميع ، حتى من جنيات قاع البحر ، في غليونه المستدير ذي الأشرعة الحريرية ، يقلع كل ليلة نحو الجزيرة ، حاملاً لها أساور ذهبية ، أحجاراً من الياقوت الأحمر ، أحجاراً كريمة ، أثواباً من الديباج ، يحتسيان النبيذ ويرقصان معاً ذات مرة ، بعد أن رقدت نيلوفر ، هبط ملك القراصنة درج الحصن ، أغلق الباب الحديدي بالرتاج ، واجتاز البحار حتى وصل إلى هنا ، إلى غرفته . لم يجده نائماً كما عادته ، فخرج يبحث عنه . بالتأكيد ، لم يكن الزائر سوى ملك القراصنة الذي يتفحص كل غرفة ، مطرطقاً الألواح الخشبية تحت قدميه الثقيلتين . حينما انتظر متكوراً على نفسه من الخوف من أن يدخل القرصان إلى غرفة المهملات ، خرج بغتة من حلمه .

❖ ❖ ❖

قبالته ، لاحظ القلب الذي يخترقه السهم والكتابة المدونة على الحائط : «ساقي المطرقة ... رضا الجندي ...» . دائماً ، عارياً على الفراش القذر حيث تتضافر الورود الحمراء ، أوراق العنب وزهور البنفسج . ينتظر الخوف في غرفة السقف الحقيرة عديمة النوافذ . تقترب ضجة الخطوات أكثر فأكثر . يسمع امرأة تنتعل خفين تصعد الدرج ثم تمشي في الرواق من هي ؟ البدينة ذات الأسنان الذهبية والسروال الداخلي الفيروزي ؟ أو الأخرى ؟ الفتاة ذات الساقين البيضاوين ، الشعر الطويل الذي يسقط إلى وركيها ، التي تدندن بأغنية ؟ ربما تكون ثالثة ، مجهولة إذ أنه لا يعرف مع من تكلم قبل أن يصعد إلى هنا . فكر طويلاً ، لا يستطيع أن يتحقق من الصوت الذي أشار إليه بالتوجه إلى غرفة آخر الرواق . شعر بجسده العاري يرتجف برداً ، وهو ذا كل شيء . قلبه يخفق بقوة .

Twitter: @ketab_n

هو ذا يداعب أسفل بطنه بأطراف أصابعه المرتجفة على أمل أن ينشطه . فجأة ، يغمر عرق بارد ثنايا فخذيه . عيناه مثبتتان إلى السقف ، يغطي رخاوته براحتي يديه الرطبتين . الآن ، أصبحت فرقعات الخفين قريبة للغاية . يغمض عينيه لئلا يرى الفتاة التي ستفتح الباب وتتقدم نحوه . ينتظر ، قليلاً ، أن يسترد أنفاسه . يسمع فرقعات الخفين تتمهل ثم تقف أمام الغرفة المجاورة ، باب ينفتح وينغلق صارفاً ثم تخمد الفرقعات . حينما فتح عينيه لم ير أحداً . دائماً ، عارياً على الفراش . حينما تهيأ للنهوض من الفراش كي يرتدي سرواله الداخلي المعلق على المشجب ، سمع فتاة أخرى ترتقي الدرج بخفين في قدميها . هذه المرة ، انتظمت الفرقعات . ترتقي الدرج كأنها تركض . في نفس اللحظة ، يسمع الأغنية الفاترة ، الحنينية . بغتة ، عرف صوت السمراء ذات الساقين البيضاوين ، طلاوة ذرى الجبل البعيدة و طلاوة رياح الجرف تملأن غرفة السقف الحقيرة عديمة النوافذ . تتلاشى الأغنية المأساوية في نفس اللحظة التي تبتعد فيها فرقعات الخفين قبل أن يستطيع ارتداء سرواله الداخلي . يتخيل أن الفتاة التي تغني دخلت إلى غرفة مجاورة ومتعرية تمددت إلى جانب زبون آخر ، متخلية عن لازمتها الموسيقية الناقصة . هل سيدوم هذا الانتظار طويلاً ؟ كم من وقت سيمر عليه منزعجاً من الكوابيس ، قابعا هكذا ، عارياً كلياً ، في غرفة بماخور بارد ينشر الرطوبة ؟ آخر الأمر ، ليأت ملك القراصنة ! بحسامه ، بأسنانه الذهبية ، بقرطه في أذنيه ، ينحني عليه ويقتله ! أو بالأحرى ، يضعه في حقيبة ويقذفه إلى المياه ! الفتى ، الذي دسه ملك القراصنة في كيس قماشي وألقاه في البحر بذريعة أنه يحب نيلوفر ، مزق القماش بخنجر أخفاه تحت صداره ، ونجح في أن يتحرر مصارعاً الأمواج البيضاء المزبدة ، اجتاز البحار السبعة ، وبلغ جزيرة نيلوفر . كانت البائسة تبكي بدموع ساحقة في الحصن الحجري المحبوسة فيه في الأسفل ، صاح الفتى : «نيلوفر! نيلوفر!» ضاع نداؤه وسط صخب الأمواج التي تضرب الصخور ، الأمواج العالية كما المآذن . قادت الرياح صوته إلى البعيد حينئذ ، تناول حصوة وقذفها إلى شرفة الحصن . وهي

Twitter: @ketab_n

تسمعها تسقط ، خرجت نيلوفر ورأت حبيبها الذي يناديها استخف الفرح بها «نيلوفرا نيلوفرا» ، هكذا صاح الفتى . والإعصار يؤرجح نبراته الحزينة إلى البعيد ، إلى ما وراء البحار السبعة ، حتى الجبال البنفسجية حيث تتلاشى . ما عدا نيلوفر ، سمع الجميع صوته ، حتى جوارح الذرى . «نيلوفرا نيلوفرا » . يتعذب الفتى من فكرة ألا يستطيع أن يلتقي ثانية بمحبوبته ويتأمل جمالها . «نيلوفرا نيلوفرا أنا ذا! اجتزت البحار الواسعة ذات الأمواج الهائجة ولكي ألقاك ، دنوت من تنين البحار السبعة وأبدت الغيلان . أنا ذا! أضرمت النيران في غليون والدك بعد أن أثملت الحراس الأفظاظ نيلوفرا نيلوفرا! دعيني أدخل ! ضميني إلى صدرك ! نيلوفرا! نيلوفرا! القي بالمفاتيح كي أستطيع الصعود إلى الأعلى ، إليك . . أحرقني الهوى ، وأهلكني الحنين إليك ، نيلوفر ، نيلوفر ، يا حبيبتي القي بحزمة المفاتيح ، المفاتيح» . صوت الفتي بلغ الجبال البنفسجية مبللاً . «القى بحزمة المفاتيح ، المفاتيح . . .» . ما عدا نيلوفر ، سمع الجميع نداءه المؤثر الممزق . كان الفتى يجهل تماماً أن المفاتيح ليست في حوزة نيلوفر ، وإنما مع ملك القراصنة ، التي يعلقها دائماً عند خصره . تنظر نيلوفر إلى الأسفل ، لا تستطيع أن تتحمل مشية حبيبها المحزنة المؤلمة . تشفق عليه . تحل عقدة شعرها الطويل المعتني به جيداً . ثم تتركه يتدلى من الحاجز . متعلقاً بشعر جميلته ، يتسلق الفتى إلى شرفة الحصن . هكذا ، تحققت رغباته . كل ليلة ، بعد أن يغلق ملك القراصنة الباب بالرتاج ، ويرحل حاملاً المفاتيح ، ينادي الفتى من الأسفل : «نيلوفر ، يا حبيبتي! حلي شعرك السافرا » . متشبثاً بالضفائر الناعمة ، يتسلق إلى أعلى الحصن . يتحابان حتى الصباح ، مع هدير الأمواج . حتى الصباح ، مع هدير الأمواج .

❖ ❖ ❖

متي سينتهي هذا الانتظار؟ متى سينفتح باب الغرفة ؟ متقدماً إلى الداخل ، هل سيتبدى الوجه الرهيب لملك القراصنة ، أو الشفتان الأرجوانيتان

Twitter: @ketab_n

للفتاة التي تدندن بالأغنية ؟ يتمدد على غطاء الفراش القذر الذي تتضافر عليه الورود الحمراء ، أوراق العنب وزهور البنفسج ، كم يحتاج من وقت لكي يمكث هنا وهو يحاول أن ينشط أسفل بطنه المنكمش من البرد ؟ من الآن فصاعداً ، يسخر من عريه . لقد اعتاد على غرفة السقف عديمة النوافذ فيما اعتاد فيما بعد على موت والديه فجأة ، مات والداه بطريقة غريبة ، عاريين على الفراش ، متشابكين ، وهما يتأوهان . وهكذا ، لبث وحيداً في المسكن الكبير . يبحث ملك القراصنة عنه في كل مكان . تقترب خطواته أكثر فأكثر . قليلاً ويبلغ الغرفة الحقيرة . حينما يفتح الباب ، هل سيراه ؟ في العتمة ، هل يستطيع أن يتبينه ، على عدة السرير ، إذ أن البرد كوره على نفسه ؟ أو بالأحرى ، حتى تعتاد نظرته الجامحة على العتمة ، هل ستظل مركزة على فرجة الباب ، منتظراً في وقفته على دعامة حجرية ، بخنجره المرصع بالأحجار الكريمة ومسدساته المخبأة تحت صداره الذي يحيط بخصره العريض ؟ يشعر بالبرد الليلي يصعد من قدميه العاريتين إلى أسفل بطنه ، إلى جسده كله تدريجياً . الخطوات التي تفرقع على الألواح الخشبية قريبة للغاية . بغتة ، ينفتح الباب ، يسقط ضوء صحن الدار الساطع على ذراع آلة الحياكة . تكبر الحزمة الضوئية ، تقفز إلى عدة السرير ، وعلى حين غفلة ، تأسره في مكانه عيناه المذعورتان مفتوحتان بداية ، لم يستطع أن يميز الخيال الذي يمشي على يمينه . يغلق العين لئلا يرى وجه ملك القراصنة الرهيب . في لحظة ، سوف يشعر بالنصل البارد للحسام على وجهه . مع ذلك ، بقوة نهائية ، يدير رأسه تجاه الحائط . وبينما تمدد على غطاء الفراش القذر الذي تتضافر عليه الورود الحمراء وأوراق العنب وزهور البنفسج ، تتوقف فرقعات الخفين التي ترتقي الدرج ، في بطء ، أمام الباب . يداه ، دائماً ، على أسفل بطنه الضامر . يحاول ، للمرة الأخيرة ، أن ينشطه ولكن بلا فائدة . يغلق عينيه لئلا يرى قرط البدينة ، انتفاخاتها الدهنية الطافحة على سروالها الفيروزي ، لكي ينسى أنه لم يتبق الكثير حتى تميل عليه بفمها المتهدل ذي الأسنان الذهبية ، أو بالأحرى لكي يتحرر من نظرة السمراء ذات

Twitter: @ketab_n

الساقين البيضاوين ، من جرح المدية المخفي بالشعر الأسود الطويل الذي يراه هابطاً إلى وركيها لما تدير ظهرها ، أو لكي يمحي من ذاكرته اليدين ، وجه المجهولة البعيد غير المعبر ، ويطمس أبداً ذكرى هذا الجسد الغريب الذي سيلقى منه الارتواء ، لأول مرة في حياته . مكث لحظة دون أن يرى شيئاً . كان كفيفاً ، أبكم بعد فترة ، شعر بأنفاس ساخنة قربه . يد مألوفة تعبث بشعره . جسده ، الذي خدره البرد تدريجياً ، يسترخي ، يهدأ ، ثم يرتخي كلياً على كومة عدة السرير ذراعان طويلتان ترفعانه عن مرقده وتضمانه إلى النصف الأعلى لجسد لدن وبارد . حينما فتح عينيه ، ألفى وجه أمه المصدور والشاحب .

عاجزاً تحت فوحان عطر مألوف ، يشعر أنه يذوب ويغني في حالة من الطمأنينة التي يبثها الجسد الممتلئ الذي يصفه ، لم يكن لملك القراصنة قدم ، هذا ما يعرفه في الوقت الحاضر ، وقد ظل ضوء صحن الدار الساطع بعيداً خلفه . حالاً ، نسي الليل البارد وذراع آلة الحياكة وظلال الصوان العتيق والوسائد المثلثة للصوفا ، مثلما نسي صريف الأرضية الخشبية والانتظار الطويل المسكون بالخوف . لم يعد قلبه يخفق بشدة البته ، هدأ نوعاً ما من ألفة الجسد الذي يعانقه . يقول في نفسه انه حينما ينام في فراشه ، ستهمهم أمه بدعائها المعتاد وتهمس في العتمة كي تبعد العين الحاسدة ، بعد أن تهبط الدرج وهي تحمله بذراعيها .

❖ ❖ ❖

يفتح عينيه نوعاً ما ، ترتد هبة عرق حاد إليه ، كان عارياً على الفراش . نفس الكتابة المنقوشة تحوم ، دوماً ، على القلب الذي يخترقه السهم : «ساقي المطرقة . . . رضا الجندي . . . رضا صغيري سوف يمضي كل شيء . . نعم ، سوف يمضي بقوة عملك» . . كان الزاغ موجوداً ، هو الآخر ، يمزق القلب بمنقاره المدبب ، فينساب دم ساخن ، ثخين نقطة إثر أخرى على الأرض . يضع يده

Twitter: @ketab_n

اليمنى على أسفل بطنه . صلباً ، مبللاً ، زلقاً ، يغطي راحته . سكن روعه . لا يسيل الدم على الأرضية . يختفي الزاغ . ينبغي أن يطير من الحائط . ممدداً على الفراش ، يشم رائحة عرقه . دائماً ، يده على أسفل بطنه . تدريجياً ، يشعر به يلين ، ينكمش تحت أصابعه . في نفس اللحظة ، تصيبه رعدة . ينتصب واقفاً ، يرتدي سرواله الداخلي . رأسه تدور دون أن يرتدي بنطاله ، لذا من الضروري أن يجلس ثانية إلى غطاء الفراش ، الذي تتضافر عليه الورود الحمراء وأوراق العنب وزهور البنفسج ، نصف عار ، يتطلع طويلاً إلى الفراغ . ترن فرقعات الخفين في أذنيه ، لا يذكر في أي لحظة دخلت الفتاة إلى الغرفة ولا كيف ، وهي ممددة إلى جواره ، استثارت أسفل بطنه . لا يعرف ما جرى فيما بعد ، كيف ولجها وكم من وقت لبث معها . لم يحفظ في ذاكرته سوى رائحة العرق النفاذة والانتظار الممل الذي عاشه وعري صحن الدار الغارق في الضوء الشديد . لم ينخمد أبداً ، هذا الضوء لم يكف عن اللمعان طوال أعوام ، أضاء الحوائط المتسخة والأرضية الخشبية لصحن الدار الخالي من الأثاث . يريد أن يهبط سريعاً ، يهرب من هذه الإضاءة المقلقة ، ينزلق إلى فراشه وينام نوماً عميقاً . لكن هرج ومرج شارع المواخير ينتظره في الأسفل ، وليس نفس أمه الدافئ الذي يحسه في الضوء الخفيف فيما تضمه ، يعرفه جيداً . يقول في نفسه أن هذه المرة ، إذا استطاع أن يخترق حشود المارة ، سيخرج ، كما لم يجر مثلما جرى سلفاً من قبل الحشود ودفع به إلى غرفة السقف الحقيرة ولن يعود إلى هنا البته وسيعيش بعيداً عن هذه الخلوة الحقيرة . من جديد ، يسمع فرقعات الخفين خلف الباب ، عندما ملأ جسد آخر الفراغ الذي تركه ، بعد أن ارتدى ملابسه وخرج من الغرفة .

شوارع واسعة ، مفارق طرق ، جسور ، أبواب ، نوافذ .. يحاذي الواجهات المعتمة للبنايات القديمة المتكتلة إلى جانب بعضها البعض ، مصارف ، شيكات ، قسائم ، واجهات محال . بضائع من الأحذية ، الملابس ،

Twitter: @ketab_n

السجق ، السلامي ، الجبن . ليست شرائح «الدونركباب» (وجبة تركية من اللحم الضأن) تلك التي يقطعها الرجل الذي يرتدي الأبيض بسكينه الكبيرة ، وإنما أعداد من الصبية المهتاجين المشاغبين .

النصل يلمع تحت ضوء الفلورسنت . يتدفق الناس إلى مفرق طريق قراقوي ، من شارع يوقسقالديريم . طريق خال يصعد متعرجاً حتى حي البنايات الواطئة . على مناضد الباعة المتجولين : أمشاط ، قداحات ، مسابح ، أنابيب معاجين الحلاقة ، مدي ، أمواس . . تنتظر المشتري . قبالة سكين الطاهي ، يبيع صبي أسمر سجائر مهربة . بخار يتجه إلى جزر الأمراء ، ترولي باصات وعربات تجتاز الجسر . شارع مطروق نوعاً ما يهبط إلى سوق السمك ، يحاذي الواجهات المعتمة للبنايات القديمة . ماذا سيفعل حالاً ؟ هل سيختلط مع هرج ومرج السبت ويتسكع في الشوارع ، أو بالأحرى سيؤدي إلى المدرسة ؟ ظل متردداً . يمشي دون أن يعرف أين هو ولا إلى أين يذهب . يمشي وفوران المدينة يزداد . باصات ، ترولي باصات ، سيارات أجرة ، كريولات (عربات نقل صغيرة) تتهادى . تدوي الصافرات العالية للبواخر التي تتأهب لاجتياز البوسفور في أذنيه . يشعر أن المدينة ، بقبابها المعدنية ومآذنها المدببة التي تمس جلده تدق تحت مقابرها ، وأن الدماء تكتسح جسده ، مع كل دقة من دقات قلبه . روحه مرهقة . يري سكين الطاهي الكبيرة . لكي ينقذ نفسه ، ينسي الكابوس الذي واتاه في شارع المواخير ، والسائل اللزج الذي اجتاح راحته ، واستطاع أن يمحي كل شيء من ذاكرته ويدلف إلى الأزقة الموحلة . تدريجياً ، تخف ضوضاء غير محتملة . يخطو على الطوار الضعيف الإضاءة ، رصيف سفن الحديد الهالك . يعرف جيداً . أميز جسده الهش الذي يرتجف في رياح الجنوب . إذا سلكت شوارع معتمة نوعاً ما أو شارعاً كبيرا مغموراً بالأضواء ، أستطيع أن أتبين بثور حب الشباب على جبهته . انه قريب مني للغاية . يداه يديّ ، جسده جسدي . وأيضاً عيناه ، نظرته . غير أنه يمشي دوماً في أزقة موحلة . بما أنه يتقدم ، ترك خلفي البنايات التجارية ، الشوارع المزدحمة ، المحال التي تبيع

Twitter: @ketab_n

السجق والسلامي والمعاطف الإنجليزية . على طول ضفة القرن الذهبي ، لا يعرف أين هو ولا أين يذهب ، يتجه إلى الميادين المتروية ، الساحات الصامتة ، كأنه يود أن يهرب إلى كابوس ويمشي حتى الصباح . لا أود أن أتركه هكذا ، وحيداً على ضفة مياه القرن الذهبي الغامقة السواد . إذ أنه قليل التجربة ، ضعيف ، وجل . نحن قريبان ، سنوات تفصلنا ، بيننا مدن وبلاد ولذات مجهولة له . نسوة أخريات أيضاً . إنه الشخص الرئيسي لهذه الحكاية ، وأنا السارد . نعرف بعضنا جيداً ، لكنه لا يعرفني .

❖ ❖ ❖

هل مشى ، دوماً ، في الأزقة الموحلة ؟ هل رأى خيالات مهددة تتحرك تحت ضوء المصابيح ونسوة يرتدين الحجاب على رؤوسهن يراقبنه من خلف المشربيات ؟ يمشي في الأزقة الموحلة لهذه المدينة ، هذا صحيح . لكن اسطنبوله التي ، منذ شيدت عند ملتقى ثلاثة بحار ، تمتد ، تكبر وتنمو ولا تحوي إلا أزقة . أزقة عريضة مخططة ، حدائق القصور الخشبية القديمة تحولت إلى ميادين ، بعد ذاك ، الكورنيش ، البنايات العالية المرتفعة عن القباب المعدنية والمآذن النحيلة . نعم ، بقدر ما أصبحت اسطنبول عاصمة إمبراطوريتين ، ظلت قرية كبيرة ، الأزقة ضيقة وموحلة . نشالون متسكعون عند مفارق الطرق ، وكلاب شاردة تعج بالأراضي البور ، يعيش الشحاذون في أنقاض الأسوار وباحات المساجد . لكن عند عودته إلى هذه المدينة ، ومن الشارعين الكبيرين اللذين يربطان الأسوار بميدان آقساراي ويخترقانها ، حلت الترولي باصات محل عربات الترام ، وممرات تحتية وجسور محل رجال المرور ، والسيارات تمضي بأقصى سرعة تحت القناة البيزنطية . من غير شك ، التحقت قناديل الغاز وظلالها المتراقصة بالتاريخ . يغطي طنين الباصات على نباح الكلاب ، ويمتزج الآذان المنبعث من مكبرات الصوت العديدة بالأصوات الرنانة التي تتصاعد من ورش القرن الذهبي البحرية . ومنذ زمن ، هجر النشالون مفارق

Twitter: @ketab_n

الطرق ، وأخذ الشحاذون ينسلون إلى الباصات والمعابر والشوارع . أيضاً الشوارع الموحلة ، الوجوه المحجبة للنساء القابعات خلف المشربيات يجب أن تكون مجرد ذكريات عن اسطنبول العجوز ، أو بالأحرى بعض القراءات . فانوس البندقية (فانوس من ورق ملون شفاف) في اليد ، يتجه أفندي من اسطنبول إلى ريرقليرارزي ، حي المسارح . امرأة ترتدي الفراجي (ثوب تقليدي يغطي الجسد كله) تهبط من سيارة عامة .

زوارق القايق تنسل ، رجال يعتمرون الطرابيش يداعبون مسابحهم . أنا من قرأ هذا كله منذ سنوات طويلة ، على وجه الخصوص في باريس . تحدث الرحالة الأوروبيون القادمون من اسطنبول في القرن الأخير (المقصود القرن 19) عن الآذان ونباح الكلاب لأنه كان من الخطر ، زمنئذ ، الخروج ليلاً إلى الشوارع ، وصفوا أماكن اللهو والتسلية في بيرا ، سكوتاري الورعة ، العالم الزاهي الذي ينعكس على مرايا قصر البوسفور . لكنه لم يقرأ البتة مادونه بيار لوتي الذي استعاد مسكنه الكائن في حي أيوب ، عبر المقابر الغارقة في العتمة ، والذي ـ بعد أن أغلق باب مسكنه بالرتاج وخلع حذاءه الملوث بالوحل ـ ألقى ازياديه في الصالون الكبير الدافيء بفعل موقد جمر نحاسي ، لكي يحيا معها محبوساً ، تلك خلوة بعيدة مرغوبة . أنا من قرأ بيار لوتي . بعد ذاك بفترة طويلة ، في باريس ، تخيلت اسطنبوله التي لا تشبه اسطنبول الفتى ذي الستة عشر عاماً . في اسطنبول بيار لوتي ، هناك مقابر ، زوارق القايق ، بوم ينعب طوال الليل ، ماء الورد واللقيمات . المساكن خشبية ، النسوة يلقين نظرات ساحرة . عطار والبازار الكبير ، الدراويش ذوو اللحى البيضاء يبقبقون النارجيلة ، والنبرات المؤثرة للمؤذن تتردد في الساحات الظليلة . مع هبوط الليل ، يرتفع هلال وراء المآذن ، وبينما رياح الشمال التي تصفر على القرن الذهبي تهز أغصان السرو في المقابر ، خلف الأبواب الموصدة ، الصالونات المعتمة المغطاة بالأبسطة المبرقشة ، تتعالى همهمة :

Twitter: @ketab_n

«الشياطين ، الجان

النمور ، الأسود

الأعداء . . .»

مشبوه وأعور في آن واحد . دائماً ، قصت أمه له هذه الحكاية . شرحت له كيف أثرى ملك القراصنة وأقام سلطته على مملكة البحار السبعة ، وأظهرت له ملابسه والعصابة السوداء التي يلفها حول رأسه . مسدساته المتدلية بحزام ملتف حول بطنه ، ويلوح بحسام . أسنان ذهبية تلمع في فمه . خنجره المرصع بالجواهر يتلألأ . كم من مرة غاب ملك القراصنة عن فراشه منذ تلت أمه دعاءها ، وهمست في الضوء الخفيف وهي تغادر غرفته وتتركه وحيداً في غرفته ، كم من مرة ، قبل أن ينام ، لم يخشه وهو يلوح بحسامه ! يخرج من حميلته القرمزية أكياس من ذهب تنزلق تحت الوسادة .

هو ذا الصوت الهامس والناعم لازياديه ، التي قدمت من أعماق الحريم : «لوتي ، يا روحي ، لن أحيا طويلاً اثر رحيلك ، سأموت» . أنا أيضاً ، سمعت نفس الصوت بعد سنوات عديدة . لم تقل : «لن أحيا طويلاً إثر رحيلك ، سأموت» . لكن بعد فترة قصيرة من رحيلي ، صمتت للأبد ، تاركة همساً خفيفاً : «في غرفة المهملات وجدتك . كنت متكوراً على نفسك ، راقداً على عدة السرير ، وحيداً» .

كم كان الصوت ناعماً ، رائقاً ! قريباً!

❖ ❖ ❖

قبل أن أغادر اسطنبول ، وددت أن أرى ـ للمرة الأخيرة ـ القرن الذهبي . في الغد ، يجب أن أرحل إلى باريس ، ربما للأبد . ماشياً في الأزقة الموحلة ، وقفت أمام كنيسة أرثوذكسية قديمة مشيدة بالآجر الأحمر ، صغيرة للغاية . كأنها محل أو مسكن . كانت صغيرة للغاية ، بسيطة للغاية ، ولكن ودودة أصلاً . نقول قطعة صغيرة من عالمنا ، من فرحنا ، من ألمنا اليومي .

Twitter: @ketab_n

حينما دخلت ، كانت الشموع تشتعل . بالضبط أمامي ، رأيت السيدة العذراء والطفل يسوع بين ذراعيها . يمسك أمه من عنقها ، الوجنة معتمدة على الوجنة . بدقة ، متعانقين في ضوء الكنيسة الخفيف وقد ذاب جسداهما في جسد واحد ، كانا لوحة باهتة عبر فراغ يضيئه اللمعان المتذبذب للشمعدانات الكبيرة . عن ثوب مريم العذراء الأزرق وبشرة يسوع الوردية ، لا يتبقى سوى أثر من لون مظلل . انهما غير موجودين هنا . لهما أعين ، أياد ، وجه ، ولكنهما غير موجودين . انهما ليسا من هذا العالم . أعلى الأيقونة ، نستطيع أن نقرأ مريم أم الرب . عصافير ترفرف قرب الأحرف اليونانية . السمان أو ربما السنونو . أو عصافير خيالية ، خرافية . إلى جانب ، يسوع على أيقونة أخرى . هذه المرة لم يكن بين ذراعي مريم العذراء ، وإنما على الصليب فقط . نقول أنه صعد إلى السماء باسطاً يديه النحيلتين . الرأس مائلة ، والعينان مغمضتان . جسده متقلص . في الخلفية ، أشجار بعيدة ، وأسوار المدينة تقع وسط الصحراء . السماء صفراء . مريم العذراء تبكي ، منهارة أسفل الصليب . عرفت وجهها المدور والشاحب وعينيها الحنونتين .

لم تقل لن أحيا طويلاً بعد رحيلك سأموت ، قالت «في غرفة المهملات وجدتك . كنت متكوراً على نفسك ، راقداً على عدة السرير ، وحيداً!» . لم يكن هناك أحد في الكنيسة . أنا الوحيد الذي سمع صوت مريم العذراء .

خرجت ، اجتزت شوارع القرن الذهبي الموحلة . كان الوقت مضبباً . أذكر أني ، لما كنت جالساً في مقهى قرب الرصيف ، رحت أتأمل المياه التي تلوثت وتشخن يوماً بعد يوم . هو ذا يومي الأخير في اسطنبول .

بعد فترة طويلة ، عدت إلى نفس المكان . أردت أن أرى الكنيسة الصغيرة المشيدة بالآجر الأحمر . تهدمت . لكي تتمكن الشاحنات من نقل وتفريغ البضائع على الرصيف ، وسعوا الطريق ، وبنوا بنايات جديدة بدلاً من المساكن الخشبية القديمة .

Twitter: @ketab_n

لم يعد المقهى المقام قرب الرصيف موجوداً طوال أيام ، بحثت بلا جدوى عن لوحة السيدة العذراء والطفل يسوع التي رأيتها في الكنيسة . مضت أعوام وأعوام . ذات صيف ، قبل أن أغادر اسطنبول ، التي قدمت إليها كي أمضي إجازاتي ، وجدتها مصادفة لدى تاجر عاديات في حي البنايات الواطئة . اشتريتها مقابل ثمن زهيد للغاية . والآن ، في باريس ، علقتها في غرفة النوم ، وكتبت هذه الأسطر ، إنها تتطلع إليّ .

«في غرفة المهملات وجدتك! » .

صوت هادئ ، ناعم مثل الحرير . مثل تمزق النسيج ، مثل حفيف السرو في المقبرة . «في غرفة المهملات وجدتك . لقد خفت نوعاً ما ! رأسك نحو الحائط ، لم تكن تنظر إليّ . حينما أخذتك بين ذراعي ، جسدك مرتخ ، ساكن . أضمك إلى صدري . أنا أيضاً أصابني الخوف . لا تستطيع أن تتخيله» .

❖ ❖ ❖

في الخارج ، هبط الليل . تنحدر العتمة على أسقف فندق دوسونس . تلتحف بالساحة والحوائط الحجرية . أنا في مسكني ، بشارع فيجييه . أضيء المصباح . ينقض الضوء على الأوراق البيضاء . تتلألىء الكلمات التي سطرتها ، الكتب غير مدونة على الطاولة ، الورود البنفسجية ، سماور الشاي ، أتناول سيجارة وأهجر سحر الصوت .

❖ ❖ ❖

«لاتستطيع أن تتخيله وحيداً في الليل المعتم . والدك نائم منذ فترة ، والفانوس الغازي منطفىء . بداية ، تطلعت في الغرفة ، لم تكن موجوداً . كالعادة ، أحطت بك بعد أن تلوت دعائي . لا ، ليس كما العادة . تباطأت أحياناً ، نعم ، وهذا أمر غير سيىء ، رأيت فراشك الصغير كان خالياً دخلت كي أنظر تحته تبينت في العتمة دبك المخملي الرمادي . قائمته اليمنى منزوعة . كان موضوعاً على جانب ، تذكرت أنك منذ فترة طويلة لم تعد تنام معه .

Twitter: @ketab_n

أشفقت على الحيوان البائس . أيضاً ، نسيت شاحنتك الزرقاء ، وسيارة المطافئ ، لم تترك سفينتك ، التي جلبها والدك من اسطنبول ، تطفو في حوض الحديقة . مع ذلك ، يتكون عالمك من اللعب والحكايات . نيلوفر ، ابنة ملك القراصنة ، ذات الشعر الحريري الطويل . الفتاة الجميلة ، أهيف فتيات مملكة البحار السبعة تسمعني قبل أن تنام . ملك القراصنة حبسها في حصن مشيد في جزيرة نائية ، في عرض البحار ، بمعية حراس يحرسونها . هبط الليل بطيئاً على الجبال . سمعته ، رغم جفونك الثقيلة ، كل ليلة ، بمساعدة المفاتيح التي تهتز عند خصره ، يفتح باب الحصن ، ويصعد إلى ابنته ، يتأمل جمالها في ضوء القمر . . منذ فترة ، مَسَّكَ سلوك غريب ، غير مفهوم ، أصابني بالهم . أصبحت أكثر هدوءاً ، أكثر صمتاً ، وماذا بعد؟» .

❖ ❖ ❖

شارع صامت في قلب باريس ، شارع فيجيبه . وحيداً في الغرفة التي تطل على ساحة فندق دوسونس . وحيداً في ضوء المصباح . أحياناً ، تمرق سيارة في الأسفل . تتوقف عند التقاطع قبل أن تمتزج بالسيارات الأخرى المنسابة على امتداد الطوار . لكن ، لحسن الحظ ، لا يصل صخب البحر إليه . في الغرفة ، فراش ، طاولة ، كتب . حينما أرنو إلى الخارج ، عبر النافذة اليسرى ، أرى جزءاً من السماء ، ليس أكبر من راحة اليد ، يتعتم رويداً رويداً أعلى أسقف فندق دوسونس . الحوائط عارية ، فقط ، أيقونة ، بالضبط وسط الحائط قبالتي ، تتطلع إليّ . تتحول الألوان إلى الأسود مع الأفول . وأصبح وجه مريم العذراء الشاحب غامضاً . غير أن صوتها رائق . قريب ، دافئ . دافئ .

❖ ❖ ❖

«وماذا بعد ؟ دائماً ، لم أجد إجابة شافية . تغيرت ، هو ذا كل شيء . خرجت من غرفتك ، نظرت إلى الصالون . فتشت غرف الطابق الأسفل . بحثت في المطبخ ، الحمام ، وحتى في بيت المؤن . لم تكن موجوداً في أي

Twitter: @ketab_n

مكان . كأن الأرض ابتلعتك . في هذه اللحظة ، اعتقدت أنك ضعت ، وإنني لن أراك أبداً ، ارتقيت الدرج كالمجنونة . وعلى ضوء صحن الدار الساطع ، فتحت كافة غرف الطابق الأول . بحثت خلف الفوتيلات القديمة ، تحت الصوفا ، في الخزائن . لم تكن موجوداً . تخيلتك هجرت المسكن الكبير ، رحلت . تخيلتك خرجت إلى الحديقة . لكن باب المدخل كان موصداً ، ومقبض الباب أعلى منك . الألواح الخشبية تطقطق تحت خطواتي القلقة . تلك نهاية العالم . هذا المسكن الذي أوصى أبي إليّ به يتقوض . فجأة ، سوف ينهار السقف ، والحوائط سوف تتهاوى علي . أريدك إلى جانبي دائماً وأبداً ، إلى يوم موتي . وحتى بعد موتي كيف استطعت أن تعرف برضي ، الحياة تفر مني ؟ واتتني فكرة أن أفتش في غرفة المهملات ، بينما تختفي أرضية الغرفة تحتي . على آخر أمل ، فتحت الباب . كنت متكوراً حول نفسك على عدة السرير ، الرأس نحو الحائط . لم أتخيل أنك خائف . كنت خائفة أنا الأخرى ، كما تفهم . هوذا كيف وجدتك في غرفة المهملات . ناهضاً من المرقد ، ضممتك إلى صدري» .

❖ ❖ ❖

في الخارج ، هبط الليل . تلألأت أضواء فندق دوسونس . أنظر إلى النوافذ الملونة ، المزازيب المنصوبة على مستوى السقف . اعتقدنا ، بصورة سيئة ، أن الأثر التاريخي استخدم كمكتبة . إذا لم أكن رأيت الناس يدخلون ، وحافظات ورقية في أياديهم ، بعد اجتياز الساحة الطويلة ، أتخيل نفسي في العصور الوسطى . برجان دائريان ، سور عريض يحيط بالشارع ، نوافذ قوطية حجرية . بنى تريستان دوسالازار ، مطران سونس الحصن في القرن السادس عشر . أقامت مرجريت دوالوا عاماً فيه . طوال النهار ، تطلق نظرتها الحزينة المتعبة على الساحة والأسوار الصامتة . كأنها حضرت قطع رأس الشاب ـ تحت الحصن ـ الذي قتل حبيبها جوليان . ذات يوم ، وراء هذه القضبان ، ذوات من عصر آخر ، من عاطفة أخرى ، يميلون على كتب أمامهم ، ممتصون في عالم الكتب . لم يحتل أحد مكان الملكة مارجو ، غير أن جسدها حطمته الشهوة وعذبته رغبة

Twitter: @ketab_n

تدوم في أجساد أخريات ، في نظرات نسوة أخرى ذوات أعين جميلة . والحكمة المأثورة تقول إن الوحدة التي تتبع المتعة تضحي مع الوقت مشروعة .

أعلى الأيقونة المعلقة في الحائط قبالتي ، تتأمل مريم العذراء الغرفة . العتمة حجبت جبينها . فقط عيناها ، عيناها الحنونتان اللتان يضيئهما المصباح ، يمكن إدراكهما . صوتها أيضاً . في غموض ، تحوم ـ بدون توقف ـ في الغرفة المعتمة ، مثل هذه الفراشات التي تدخل عبر النافذة المفتوحة إلى الضوء ، في ليالي الصيف .

❖ ❖ ❖

«ظلت أسئلتي بلا إجابة . لم أتوقف عن طرح الأسئلة على نفسي ليلاً ونهاراً . من أقلقك حتى تنهض من نومك خلال الليل وتأوي إلى غرفة المهملات ؟ ماذا تريد ؟ من أفزعك ؟ طوال أشهر ، طوال أعوام ، عذبت نفسي . لم أصل إلى إجابة . ظلت أسئلتي بلا إجابة . تكلم . طوال أعوام أخفيت الحقيقة عني ، وادعيت النسيان . ماذا كنت تفعل في غرفة المهملات ؟ أجبني ، إني أسمعك . . » .

❖ ❖ ❖

كم هو ناعم وقريب ، هذا الصوت ! أريد أن لا يكف عن الحومان في أرجاء الغرفة . دائماً هكذا ، قريباً وبعيداً في آن واحد . ألا تتوقف عن محادثتي .

❖ ❖ ❖

«ربما نسيت فعلاً . من الصحيح ، ننسى أحياناً . ثم في يوم ، وفي لحظة لا منتظرة ، مثلما نمشي في شارع ماسكين أحداً في أيادينا ربما نسيت . أنا أيضاً نسيت أشياء كثيرة ، لا تستطيع أن تتذكرها . لكنني لا أتذكر كابوسك ، هذه الليلة ، في غرفة المهملات . أعتقد أن يديك لم تتركا ذراعي ولا حتى رأسك من صدري . جسدك على كتفي دوماً . خفيفاً كنت كالريشة ، كعصفور ذي جناحين فضيين» .

❖ ❖ ❖

Twitter: @ketab_n

أكنتُ خفيفة كريشة عصفور ذي جناحين فضيين ؟ حينما مت ، أخذك والدي بين ذراعيه وحملك إلى الطابق الأول . لفك بغطاء قبل أن يمددك على أرضية صحن الدار الخالية . بالضبط ، مثلما فعل مع جدتي . غطاك بغطاء أبيض ، ووضع عليه سكيناً مسنونة .

كانت أمك خفيفة كالريشة ، هكذا كاتبني ، كانت تتحدث بلا انقطاع عنك في هذيانها . دفناها قرب جدتك ، وفي أربعينها قرأت «المولد» (قصيدة لسليمان شلبي تلقى في المآتم) . إذن كنت خفيفة ـ أيضاً ـ مثل ريشة بين ذراعي والدي . حتى اليوم الأخير ، أخفيت مرضك عني . مثلما حجبت أسرارك . لكنني دائماً ، أسمع الابتهالات التي تتلينها كل مساء قبل أن تضمني وصرخاتك المخنوقة التي سمعتها عبر الباب الموارب . ألحفت على والدي ألا يخبرني البتة ، مبررة الغياب الذي سيجري إذا غادرت اسطنبول لكي أعودك . لن أستطيع رؤيتك ممددة على ضوء صحن الدار الساطع ، ولا لمس السكين الموضوع على جسدك ولا سماع قراءة «المولد» . لم أستطع ومحبوك الإجابة على السؤال الطقسي الذي طرحه الإمام قبل أن يواريك التراب : «ما هي الذكرى التي تذكرها للميتة؟» . في وحدة عمري المسلمة الذي يبلغ السادسة عشر ، رحت أزرع بلا كلل الساحة الكائنة خلف المدرسة الداخلية . عشت يوماً العزلة العريقة لأشجار الصنار . أوراقها سقطت ، والمطر بللها ، والشقوق شجت جذوعها . كانت هائلة ، رهيبة . في الأسفل ، تعرض المدينة مشهداً رائعاً ، بشوارعها المنحدرة وشرفاتها وأسطحها وطوابق مساكنها . كم هي بعيدة ! مع ذلك ، بدءاً من الرابية التي أقيمت المدرسة الداخلية عليها ، نرى واجهة السراي ، البوسفور ، وحتى مدخل القرن الذهبي . يمتزج طنين السيارات التي تتسلق المنحدر مع صافرات السفن الموحلة في بحر مرمرة . فيما تغيب شمس الخريف ، تحمر نوافذ سكوتاري . كنت وحيداً في عنبر النوم ، وفي النهار أيضاً ، في أروقة العنبر الضيقة المضاءة بصورة سيئة . الآخرون بعيدون ، والمدينة منيعة . في الخارج ، تسيز الحياة بعنف وقسوة . وحيداً خلف قضبان

Twitter: @ketab_n

المدرسة الداخلية . يوم دفنك ، كنت أتأمل اسطنبول من أعلى البلفدير ، على أطراف المنتزه . بالنسبة لقراءة «المولد» ، كنت في الطابور ، جاهلاً كل شيء ، وجلاً وقلقاً أمام كوب كبير من البيرة . وجهي شاحب في المرآة . جمبري ، كبد على الطريقة الألبانية ، بلح البحر المقلي ، سلاطة الجرجير ، الألوان الحمراء ، البيضاء ، الخضراء ، تنفرج وتمتزج ببعضها البعض . وسط الكومة التي تشكل أبيض شرائح البصل مع أخضر الجرجير والبقدونس ، اللون الصدئ للصحون الطافحة بالكبد على الطريقة الألبانية ، الرؤوس الأرجوانية والبطون البيضاء للجمبري ، تبدّى وجهي شاحباً . إذا لم يكن والدي قد رحل بعد شهرين إلى اسطنبول كي يخبرني بالنبأ الحزين ، فانه عند عودتي إلى الريف في إجازة الصيف سأعرف خبر موتها .

❖ ❖ ❖

مع غروب الشمس ، جلست إلى صوفا صالة المعيشة وانتظرت . في هذه الساعة ، لم يرجع والدي بعد من عمله . أنشأت أتطلع عبر النافذة إلى الشارع الخالي تدريجياً ، تتعتم أشجار السرو خلف سور المبرة المتداعي . سمعتها تدمدم وسط الرياح ، ثم ، حل صمت عميق . على اعتقاد أن الناس ميتون وأن الأرض خلت منهم دفعة واحدة . لا نميز بين الأشياء وسط العتمة « . أنا ، لا تخف!» حينما تدخل إلى الغرفة وتضيء المصباح ، يتلألأ كل شيء ، وتتضح الألوان . الأيائل ترتوي والغابة ترنج ، على البساط الحائطي . إلى جانب صورة جدي يعتمر قلنسوة من فراء الاستراخان ، على حصانه ، وهو يتباهى بنوط الاستقلال . مطلقة دفقات من الدخان الأسود من مداخنها ، تخترق الباخرة يافوظ (الباخرة الحربية العثمانية الشهيرة خلال الحرب العالمية الأولى) بحراً ذا زرقة باهتة . فراء الخروف الأبيض على الصوفا ، ورود الأزبكية ، توشية الكليم الذي يغطي الأرضية تتحرك ، كل شيء استعاد لونه ومكانه الأصليين . بك ، يوجد العالم ، نعيش للحياة ، تبتعد العتمة . انك من يطبق النظام على

Twitter: @ketab_n

الأرض . «أنا ، لا تخف!» ، تتناولين القرآن وتجلسين بجانبي . الكلمات تخرج من فمك : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم! » .

والدي ، دوماً مسافر . «والدك في اسطنبول» ، قالت «والدك ذهب ثانية إلى سيمرن» ،

«سيصل والدك غداً» . في المساء ، تفتشين كل غرفة قبل أن تغلقي ، في صمت ، الأبواب ، مع أبوابه ، لف الستائر المسدلة ، صوره القديمة المعلقة على الحوائط ، أمواته الذين يضحكون في الصور ، صناديقه الموزعة في الأركان ، أجره وقماشه من الدانتيلا في الخزائن ، ظل المسكن مسكننا . لم يكن هناك سوانا في العالم ، وكذا الموضوعات التي تضمنا . يوماً ما ، بينما كنت في المطبخ ، دخلت خفية إلى غرفتك ، فتشت في أدراج الخزانة . ذات المرآة على أرففها ، زجاجة عطر ، أمشاط ، صناديل حريرية ، مرآة يدوية من الفضة واسورتك . ملاءاتك البيضاء مطوية بعناية في قاع الخزانة ، جذبت علبة حمراء مرصعة بالأصداف نظري ، وددت أن أفتحها ، إلا أنها مغلقة بالمفتاح . استبد الغضب بي وخرجت من الغرفة . طوال أيام وأسابيع ، ظللت تبحثين عن علبتك المرصعة بالأصداف . وهكذا لم يبق هناك مكان ولا ثقب إلا وبحثت عنها فيه . لكنك لم تسألي والدي . قلبت بين الأدراج في غيابه ، وقد عملت على ألاّ تثيري انتباهه . فتشت بين كل ملاءة ، عاينت قاع الخزانة ، الخزائن ، تحت الأبسطة ، وحتى جرار بيت المؤن . ثم كففت سراً ، أنشأت تبكين أياماً ، من أحزنك إلى هذا الحد وأفزعك من الفقد ؟ ماذا يوجد في هذه العلبة الحمراء ؟ والآن ، إذا طرحت من هنا و ـ على ناصية شارع فيجييه ـ هبطت ضفة النهر ، هل تتجه المياه المنسابة ، تحت جسر ماري ، ناحية ضيعتنا حتى باب حديقة مسكننا الخشبي ؟ إذا ما فتحت الباب وانسللت إلى الداخل ، هل ستكونين واقفة أمامي ؟ هل ستعاقبينني على هذه الإساءة ؟ ربما ستغلقين المدخل ، ولكن بدون أهمية . ماراً بمضخة المياه ، هل أستطيع أن أبلغ شجرة التوت دون أن

Twitter: @ketab_n

أدهس الزهور الوردية والبنفسجية والبيضاء التي تروينها كل مساء ؟ هناك ، بينما تهبط العتمة ، في بطء على الحديقة ، هل الأرض ناعمة كما في سالف الزمان ـ علبة مرصعة بالأصداف تتعفن تحت الأرض المحفورة بعصبية ، ضحية الدود والثعابين والجان والباريات (جمع باري ، جنية في الميثولوجيا الفارسية) ـ أو بالأحرى ، هل جذبتها الأرض المزروعة إلى أعماقها ؟ هل أذابها المطر والثلج الذائب ، اللذان يهطلان منذ وقت طويل ، مثل وجهك المدور والشاحب ؟ هذه العلبة الحمراء التي تبحثين عنها منذ أيام ولم تعترف لأحد بفقدانها ، وتبتلعين ألمك كأن شيئاً لم يحدث ، كأن أحداً انتزع جزءاً من روحك ، من جسدك ، هل امتزجت هذه العلبة بالأرض في نفس اللحظة الذي تلاشي جسدك فيه ؟ هل تضاء الحديقة دائماً حينما يصفع ضوء صحن الدار الساطع أوراق شجرة التوت ؟

❖ ❖ ❖

آخر مرة رأيتك فيها ، كان الضوء ساطعاً . صحبت ابنك حتى الباب . ظلت يدك في يدي ، لم أنس وجهك الشاحب ، حنو نظرتك . رتبت في حقيبتي الأيام الفرحة التي عشتها قربك ، بين الملابس النظيفة التي كويتها والملاءة التي طرزت رقم فصلي الدراسي بخيط حريري أزرق ، «لئلا يحدث خطأ في المدرسة الداخلية» ، هكذا قالت أينما ذهبت ، أحمل طفولتي معي ، مطوية بدقة ومرتبة بعنايتك في حقيبتي . وأنا قربك ، وجهك مدور وشاحب . الآن ، بينما يهبط المساء على باريس ، أسمع صوتك في الشقة المطلة على ساحة فندق دوسونس . أريد أن أعرف نهاية حكاية نيلوفر ملك القراصنة . غير أنني أريد الخروج حالاً ، إذ ينتظرني البعض . وهذه الكلمات ستظل ناقصة ، كالحكايات الخرافية التي كنت تقصينها عليّ ، ابتهالاتك التي تتلينها قبل أن تضميني وتهمسي في الضوء الخفيف ، الصيغ العربية التي تخرج من فمك . كم كانت حياتك قصيرة .

❖ ❖ ❖

Twitter: @ketab_n

لم أنسك .

جالساً على ضفة المياه ذات اللون الحمري ، يتأمل المدينة . تطفو قشور الخضراوات والموز والبرتقال واليوسفي على صفحته . سوق السمك بقراقوي نشطة كما كانت دائماً . يتدفق المارة نحو جسر جالاتا ، وفي أياديهم الشباك . خضراوات الفصل ، أسماك في حقائب بلاستيكية ، فواكه جافة ، لحوم مدخنة ، جبن ولحوم مقددة ، نتخيلها تحت أكياس التغليف . بائعو الأسماك بحت أصواتهم ، الزبائن يتراكبون ، ورؤوس الأسماك المدماة تسقط في المياه . رؤوس أسماك التونة ، القاروس ، الأسقمري وسط التفاح العفن وأوراق الكرنب والكراث . جالساً إلى مقهى ، يقع في زاوية السوق ، يرنو إلى الحشود التي تكبر في طلاوة المساء .

تمزقت الشباك من امتلائها . المرور متوقف في ميدان قراقوي . سيارات الأجرة تتزاحم قربه . يسعى المارة إلى فتح طريق بين الباصات والشاحنات وعربات اليد والترولي باصات . الجميع ، وشعورهم مشعثة ، جن . من مكانه ، يتطلع إلى المكدسين في الباصات ، الوجوه اللزجة من العرق ، الساكنة ، المتراصة كما أسماك السردين ، مسافرو السبت الذين ـ ونظرتهم خامدة ـ ينتظرون في صبر سيارات الفورد العتيقة والشيفروليه والبلايموث والبويك المترعة بركابها . مرهقين ، تظل الرؤوس الإنسانية هادئة في هذه العلب ، بلا هواء . وهكذا تسقط في مياه القرن الذهبي القذرة . مثل رؤوس الأسماك المدماة . العين ميتة ، الخياشيم منتفخة . تسقط وسط التفاح العفن وأوراق الكرنب والكراث . في المستقبل سوف تُغطّى صفحةُ المياه بالدم ، ثم سيبتلع المستنقع الغامق الراكد كل شيء .

❖ ❖ ❖

يريد أن يسترد أنفاسه . يستنشق هواء البحر ، الأمواج المزبدة التي تزأر في المساحة الزرقاء الممتدة . اجتاحته عفونة الزيت المحترق ، العرق ، البول . يدير

Twitter: @ketab_n

عينيه في أرجاء ميدان قراقوي ، ويتطلع إلى اليسار ، إلى ضفة القرن الذهبي الأخرى . فجأة ، تغير المشهد . كأنه اتسع . رأى سُحُباً تنسل ، بأقصى سرعة ، إلى رياح الجنوب . برج بايزيد ، مستقيماً ، يبتعد في الضوء الرمادي . يستطيع أن يميز ، في البعيد ، مآذن ومسجد السليمانية المدببة ، القباب الثقيلة التي تحطم المساكن الثقيلة ، السلال المكومة التي تكون سوراً أمام السوق . حمامات المسجد الجديد ، نقاط سوداء صغيرة ، تقطع السماء . طيور من ساحة المسجد ، تحط على الحوائط السوداء وأفاريز البازار المصري . بغرابة ، تتبدى الضفة الأخرى هادئة . لكن سوق السمك يثير صخباً مصمماً . في تموج الألوان ، تتأرجح في نفس الوقت الذي تطفو فيه رؤوس الأسماك على صفحة المياه القذرة . مزق مشحمة ، جثث النوارس تغطي مياه القرن الذهبي ، يهتز الريس يتمل والريس علي والخوجة يونس في دوامة المياه المتحولة إلى وحل لزج . ترسو معدية أيوب في جسر جالاتا وتخلي ركابها . يتعالى دخان ثخين كثيف من المدخنة ، سواد الدخان يهطل على عناقيد العنب وحبات التفاح التي تلمع على مناضد البيع ، لدى الموظفين الجالسين إلى مقهى الجسر ، الذين يدخنون النارجيلة ، وهم يداعبون مسابحهم . تتمايل زوارق الشرطة ، الطراطن (مراكب وحيدة الصاري) ، الصنادل ، قارب الصياد الذي يبيع الأسماك قرب رصيف الشحن . لا تثير رؤوس الأسماك المقطوعة الاشمئزاز . رائحة السمك المقلي ، بلح البحر ، البصل ، الأسقاط المقلية تغلب على العفونة الصاعدة من أعماق القرن الذهبي .

❖ ❖ ❖

بعد قليل ، بلغ شارع يوكسقالديرم . على يساره ، قبل أن يهبط إلى قراقوي ، رأى معبداً خلف شارع المواخير . انه صرح غريب ، يقبع آخر ساحة مبلطة . لم يستطع الدخول إذ كانت بوابته الحديدية مغلقة . وقف برهة على الدرجات . نظر إلى الضوء الذي يسطع من النافذة القوطية . قال في نفسه إن

Twitter: @ketab_n

هذا المعبد المستند إلى سور المكان القذر موجود منذ قرون . في ظل النسوة شبه العاريات اللائى لم يكففن عن انتظار الزبائن منذ بيزنطة إلى يومنا الحالي ، وأن جمعاً صامتاً يدخل إليه مرة كل أسبوع . ربما كان معبداً بناه الناجون من محاكم التفتيش الأسبانية ، وبعد أن وجدوا الحماية في الإمبراطورية العثمانية . في هذا الشأن ، الأمر حديث العهد . أكثر قرباً من هذه الأيام ، أيام الأزمة ، هذه المرحلة المؤلمة ، الطويلة ، التي نحياها . في الفراغ الذي يضيئه المصباح المعلق خلف النافذة القوطية ، رأى الأوفياء الذين ينتظرون يوم العودة . بعد أن اقتلعوا من أرض أجدادهم ، أصبح لهم أحفاد في هذه المدينة البعيدة .

دون أن ينتموا إلى حياة المدينة ، عاشوا ـ طوال قرون ـ في هذا الحي النائي المنزوي ، وماتوا في غرف ضيقة بمساكن حجرية ، ودفنوا في مقابرهم . قبل منفذ يوكسقالديريم ، نجد أن القليلين فقط من يعرفون وجود معبد ، يحيا خفية بجوار المواخير ، ولم يتبد إلا عندما اتسع الشارع واحتل الطهاة القذرون وباعة الشرائط . واجهات المساكن معتمة ، لا يوجد إنسان في الأزقة ذات الدرجات التي تفضي إلى برج جالاتا . مكث لحظة أمام البوابة المغلقة . ثم ، هبط الدرجات إلى قراقوي ، من شارع يوكسقالديريم . بمشقة ، أدرك الميدان الذي يثيره صخب المدينة . اجتاز مصرف روما وتهالك على مقعد في هذا المقهى الذي يتكون من طاولات خشبية عدة ، متراصة على ناصية سوق السمك . هل سمع هذا الصوت للمرة الأولى بصحبة الصخب القادم من المدينة ؟ لا يتذكر .

تدوي صافرات السفن ، أكثر فأكثر ، في شارع المصارف . تمتزج ضوضاء آلات التنبيه والمكابح ونداءات الباعة وشتائم الحمالين ، وسوق السمك مكتظة كما العادة . على حين بغتة ، يسمع ضجة . صافرة ناقلة نفط بعيدة تعبر البحر الأسود :

«لم أنسك . كم أنت جميل ! لم أنس نظراتك الودودة ، وجهك الطويل الرقيق ، وحدة أعوامك الستة عشر» .

Twitter: @ketab_n

صوت مألوف يحادثني . يقال إنه ، هامساً ، يدندن بأغنية حزينة ، سر محفوظ بعناية .

«لم أنسك . كم أنت وحيد! وحيد وسط الحشود . تمشي دون أن تتطلع إلى واجهات المحال . تمشي ناحية محطة القطار ، سيجارة في اليد ، غاطساً في الهدوء ، في حلم غريب ، ما وراء هذا العالم المضطرب الذي يتحرك حولنا» .

❖ ❖ ❖

بداية ، تلك موجة هادرة للصافرة المدوية . فجأة ، في طنين حشود السبت استولت عليه اجتاحته تدريجياً ، أثارت الرعدة في أنحاء جسده ، والآن ، تنساب كأنشودة :

تمشي إلى محطة القطار . أحياناً ، تصطدم بشخص مسرع الخطو تدفع من قبل أناس يقفزون من سيارات الأجرة ويركضون نحو الأرصفة . واقفاً فماشياً ، سريعاً تارة بطيئاً تارة أخرى ، تتحول عن المياه الراكدة ، مثل قطعة خشب يلعب بها التيار .

تابعتك للحظة . حاذيت البنايات الحجرية ذات الشرفات الصغيرة . وقفت فترة أمام مؤسسة سانت ــ ماري ، تحت تمثال السيدة العذراء التي ــ فاتحة ذراعيها ــ تميل على الميدان . على اليسار ، الدرج الهابط إلى بوابة الكنيسة .

إذا هبطت ودخلت ، تنبجس مياه باردة ، ألفية ، أمامك . الحوائط التي تضيئها الشموع أصبحت حواجز خزان بيزنطي رطبة أخذتك رغبة مجنونة ممتزجة بخوف الابتعاد عن المياه واللجوء إلى الفراغ الذي تنيره شعلة المصابيح المتذبذبة . لا تعرف حتى الآن أن هذه المدينة مقامة على المياه ، وأننا ــ في لحظة غير منتظرة ــ نستطيع أن نجد المحال التحتية وخزانات بيزنطة العتيقة . غير أنك واصلت المشي . بعد أن بدلت الطوار ، دخلت إلى «حلواني ماركيز» وجلست إلى طاولة في آخره .

❖ ❖ ❖

Twitter: @ketab_n

جالساً إلى ضفة المياه ذات اللون الخمري ، يتأمل المدينة . لكنه لا يرى الحشود التي تحيطه ، ولا زحام السيارات ، ولا السفن الجاهزة لكي تكون حديد خردة . القرن الذهبي أكثر قذارة وأكثر نفوراً عن ذي قبل . رؤوس الأسماك المدماة ، التي تطفو على صفحته وسط التفاح العفن وقشور الخضراوات ، لا تفزعه . لقد اعتاد على رائحة الموت ، جثث النوارس ، المزق الشحمية . فرحاً ابتسم ، مفتوناً بعيداً ، قريباً وبعيداً في آن واحد ، صوت قادم من الأعماق ، بداية مطموراً في عجيج صافرة مدوي ، ثم ـ متسرباً ـ يوثق جسده بشفافية مطهرة تستثيره ترضي جسده .

❖ ❖ ❖

«دائماً انتظرتك على هذه الطاولة القابعة في آخر «حلواني ماركيز» أملاً أن تأتي يوماً ما . مضت الأيام ، الشهور ، السنوات ولم تأت» .

❖ ❖ ❖

الصوت ناعم ، جميل ! يريد ألاّ يتوقف البتة ، أن يستمر في الانسياب . يريده أن ينساب ، دائماً أكثر شفافية . أن يكلمه دون توقف ، ويكون قريباً وبعيداً في آن معاً .

❖ ❖ ❖

«ولم تأت . أذكر نظراتك الحميمية . أذكر عينيك ، الوجه الحزين لأعوامك الستة عشر . كنت ، أيضاً ، وحيداً مثل فنار وسط العاصفة . معذباً ، معقداً ، كساق شجرة زيتون» .

❖ ❖ ❖

يمد اليد ويلمس هذا الصوت . استطاع أن يحس بحرارته ، لاحظ ، بداية ، طلاوته ، ثم بياضه اللامع . تدريجياً ، استطاع أن يأخذه في يده ، هذا الصوت . يداعب وجهه ، شعره استطاع أن يشمه حتى النشوة . يتكلم الصوت ، أمر

Twitter: @ketab_n

صحيح . لكنه يقول لا طائل منه ، فقط يقدر وجوده ، همهمته المخنوقة . فجأة ، تضاء أضواء المدينة . أسماك التونة ، القاروس ، الأسقمري المتراصة على المناضد الحمراء تدعو للرثاء . ينشط إلقاء الصوت . يعانق هذا الصوت بكل قوته ، كأنه يحفظ للأبد . يستسلم ، يتطهر معه ، يهرب إلى هذا السائل اللزج الذي يجف أسفل بطنه . يهرب إلى مستنقع القرن الذهبي . يتعدى الصوت .

❖ ❖ ❖

«كنت ، أيضاً ، وحيداً مثل فنار وسط العاصفة . معذباً ، كساق شجرة زيتون» .

❖ ❖ ❖

يعرف أنه لن يصل إلى ملاقاة الصوت . يوماً ما ، ربما يبلغ خافيته ويتبعه إلى المكان الذي يسقط فيه إلى البحر . لكن الآن على ضفة مياه القرن الذهبي التي تتعفن منذ عصور ، المستنقع العفن ، يحلم بالمعبد الذي رآه منذ قليل ، في الأزقة التي تفضي إلى درج جالاتا ، ويعرف أنه يستطيع بلوغه . منقاداً ، يهمهم : «كنت ، أيضاً ، وحيداً مثل فنار وسط العاصفة . معذباً ، معقداً ، كساق شجرة زيتون» .

❖ ❖ ❖

هكذا ياراشيل ! هكذا يا هيلين ، يا لوسين ، يا آنيتا ، يا دسبينا ! أنت المرأة التي لم أستطع أن أقابلها فيما أجوب شارع الاستقلال وأزقة جالاتا المعتمة ، وأنا ـ جالساً إلى الطاولة المغطاة بفرش أبيض في آخر «حلواني ماركيز» ـ أكابد وحدتي المسلمة لأعوامي الستة عشر! يا جميلتي المذنبة ، يا حبيبتي ! وإن كان الوقت متأخراً ولم أستطع أن أقاربك ، صوتك يصلني بعد أعوام ، سمعت صوتك . كنت أيضاً وحيداً مثل فنار العاصفة ، معذباً ، معقداً ، كساق شجرة زيتون . خذني ، خذ جسدي الذي يرتجف وسط الناس إلى أعماقك . كلماتك التي حملتها صافرة ناقلة النفط المتجهة إلى البحر الأسود ، بياض

Twitter: @ketab_n

جلدك الذي لم أستطع لمسه يصفعني في باريس ، شارع فيجييه . ليس هذا هو العام 1453 ، وإنما اليوم ، إذ سقطت اسطنبول . القرن الذهبي ، مرآة بيزنطة الجميلة والامبراطورية العثمانية ، هذه المياه الشفافة الرقراقة ، تعفنت . الحي اليهودي والحي اليوناني ، شرق جالاتا وبيرا . . لقد دمر أحدهما الآخر . مكانهما شيدت بنايات وفنادق فاخرة . تخرق ناقلات نفط ضخمة القصور المقامة على البوسفور ، ومن الآن فصاعداً بنيت الضفتان بالباطون . جمع ذكوري ، متوتر ، نزق ، اكتسحوا الشوارع . رحلت الأقلية ، لم يبق شيء من اسطنبول الكوزموبوليتانية . وقل عدد الأوفياء المترددين على الكنائس الصغيرة المشيدة بالآجر الأحمر والمعبد الملتصق بالماخور . تخلىّ «حلواني ماركيز» عن مكانه لمحل بيع قطع غيار السيارات . هكذا ، سقطت اسطنبول . هذه الضفة ، هذه الشوارع ، هذه المساكن . . هذه المدينة السحرية ، المقامة على ملتقى البحار الثلاثة .

❖ ❖ ❖

دائماً ، على ضفة القرن الذهبي . يتسكع قرب المياه الغامقة . أياً كان الشارع الذي يسلكه ، الاتجاه المختار بعد أن يجتاز حوانيت الحديد الخردة ، مخازن الملابس البالية ، ويتجول في الأسواق المضاءة ، يجد نفسه قبالة المياه العكرة ، هذا المستنقع نفسه . يشعر أنه هادئ في هذا المكان ، بعيداً عن كل شيء حيث ينساب البحر ، الذي كان مرة يعبر المضيق البحري بين جالاتا وواجهة السراي ، إلى قلب المدينة النائية . مع ذلك ، القرن الذهبي ، كم هو متسخ قذر! لكن هذه المياه الراكدة ـ مع كل خطوة ، على ناصية كل شارع ـ تقرّبه من الطمأنينة والنسيان .

❖ ❖ ❖

والآن هو ذا ـ مرة أخرى ـ على ضفة القرن الذهبي . واقفاً قرب صندل عند درج آزابقابي ، يتطلع إلى أضواء المدينة . لم يكن الوقت ليلاً . تنعكس

Twitter: @ketab_n

أضواء الضفة الأخرى على صفحة المياه . يهبط الليل . لكن ليس مرة واحدة . يهبط الظليل بطيئاً . بداية ، يحجب أعلى المآذن ، الأروقة المسقوفة ، القباب المعدنية لمسجد السليمانية . ثم تكسو هوائيات أجهزة التلفاز ، أسقف المساكن المبنية جنباً إلى جنب على الرابية . كأننا نحقق ليلاً اصطناعياً لأجل تصوير فيلم . كم هي بعيدة أسطنبول المسلمة ! مع ذلك يكفي أن أعبر جسراً أونقاباني لكي أصل إلى هناك قبل الليل المعتم ، متسكعاً بين المساكن الخشبية ذات الطابق الواحد ، في حي السليمانية اسطنبول شبيهة بأي ضيعة أناضولية ، بشوارعها المتربة التي يلعب الأطفال فيها لعبة التخبئة وأراضيها البور ، ومحالها التي تعشش العناكب فيها ولمامين خرقها وسقائيها ، بائعيها ، بائعي اللبن الرائب . لا يبلغ صخب المدينة المقاهي التي يلعب الشباب ذوو الشوارب النرد فيها أو الحجاج ، اللحى القصيرة الرفيعة ، يداعبون مسابيحهم ، جالسين القرفصاء على المقاعد . في آخر المقهى ، قرب السماور ، يدخن البعض الحشيش . والليل يترك ستاره الأسود ينسدل على النوافذ المغشية بالبخار . في المساكن ، تضاء الأنوار وتغلق الأبواب ، تكتسح عتمات ثخينة الشوارع .

❖ ❖ ❖

واقفاً قرب صندل عند درج آزابقابي ، يتطلع إلى الضفة الأخرى . أي شباب ضائع ! شباب ضائع في حشود السبت ، محتضراً في باي أوغلو ، في شوارع جالاتا المتعفنة من البول ، ثم على فراش صغير بإحدى غرف الماخور ، والآن هنا ، على ضفة القرن الذهبي . أهذا ما ينتظره في اسطنبول ؟ هذه المدينة ، لا يحبها . لا يتبادلان الحب . وجهه الممتلئ ببثور حب الشباب ، وجنتاه البارزتان . . هذا كله يكدره . دوماً ، وحيداً في عتمة الليل ! يريد أن يشعر بنفسه كجسد خال ، شفيف كمياه صافية رائقة ، لكن داخله سائل لزج ، ثقل لم يسمه . يختنق . أعضاؤه ترتخي كأنها تحت تأثير التعذيب . يريد أن يزدرد أو يبصق هذا البلغم الذي يسد حلقه . مع ذلك ، لا شيء في حلقه ،

Twitter: @ketab_n

ولا في رأسه ، ولا في أي مكان آخر ، غير أنه يعرف أنه ووجوده في هذا العالم قذران وعكران مثل مياه القرن الذهبي الموحلة . ذكريات ، تفاصيل ممتزجة برغبات تتعرج في ذاكرته ككريات البلياردو . مثلاً ، يرغب في ملامسة سيقان النساء ذوات البشرة الخمرية والشعور الطويلة . ثم تحسر على ضيعته وضجة المضخة في الحديقة . يريد أن ينام للأبد تحت ظل شجرة التين البارد التي كان يتمدد تحتها صيفاً و ـ عبر الكتب ـ يجول البلاد مجتازاً الجبال والصحاري والمحيطات . يرى نفسه جالساً أمام باب الحديقة يتأمل الشارع ، لما رجع كل فرد إلى مسكنه بعد الانتهاء من لعبة التخبئة . تنام الشمس الغاربة على حائط المقبرة المقابلة المتصدع . حالاً ، يد تلمس كتفه ، ملتفاً ، يرى وجه أمه المدور والشاحب ، يبحث عنه لتناول العشاء . الرغبات ككريات البلياردو تحوم دون توقف على مفرش الطاولة الأخضر . في عنبر النوم ، وقت الليل ، تتبدى وتتلاشى الخطوط المتشنجة للذة امرأة تتعرى ، ويظل يداعبها على ضوء المصباح الأزرق . إنها ثمرة تخيله ، كل مساء يستعير جسداً مختلفاً . أحياناً ، بدينة ذات نهدين كبيرين ومؤخرة ممتلئة . دوماً ، نحيلة كما الخيط وساقاها شيقتان . أو بالأحرى أيضاً ، مراهقة ذات مؤخرة صبي ونهداها يتكوران . لكن وجهها يظل دائماً واحداً . امرأة ذات جسد متغير ، تحت شكل جديد ، تنحني كل ليلة وهي توسع ما بين ساقيها . بعد أن ينام الجميع ، يسود الشخير والأحلام والهذيانات ، ويتراجع وجه مدور وشاحب في الضوء المائل إلى الزرقة ، يقترب من وجنتيه ، من جبهته العرقانة . يغلق عينيه لئلا يرى هذا الوجه وينسي الحركة المستمرة لهذه الصورة المألوفة تحت ضوء المصباح . غير أن العري المثير للمرأة التي تنحني عليه يضيع في الضوء الخفيف . يشعر بأسفل بطنه يلين في راحته . واهناً ، يقفز من الفراش . في بطء ، يغلق باب عنبر النوم ، يخرج إلى الرواق ، لا قطة . الحمامات ودورات المياه خالية . مع ذلك ، في هذه الساعات ، هناك بعض التلاميذ المحبوسين في غرفهم . العين مثبتة على مزلاج الباب ، الأذن مترصدة ، يستمنون . أحياناً ، يغلق اثنان الباب على نفسيهما ،

Twitter: @ketab_n

وخفافهما تتبدى من تحت الباب ، وهما يمارسان اللواط يمشي مترنحاً صوب النافذة إلى آخر الرواق . لا يرى أحداً ، كم هذا غريب ! مسمراً إلى النافذة ، ينظر إلى الأسفل ، ناحية أشجار الصنار في الحديقة . تثير الرياح حفيف الأوراق . في الطلاوة الليلية ، أطفأت المدينة أضواءها . بعد أن تغلق المدينة أبوابها ونوافذها وتسدل ستائرها تنسحب إلى الغرف الكائنة في آخرها . شوارع ، ميادين ، طرق غارقة في العتمة . والبحر أيضاً . كريات البلياردو تتعرج على البساط الأخضر ، تتصادم ببعضها البعض وتتابع إلى أقصى ذاكرته . يد تلمس كتفه و ـ في الضوء المائل إلى الزرقة ـ وجه امرأة ينحني عليه . باب عنبر النوم الذي يفرخ الأحلام والرؤى ينفتح ثم ينغلق . يخرج تلميذ ذو عينين محاطتين بالزرقة من دورات المياه . كريات البلياردتتدحرج ، واحدة إثر الأخرى ، إلى الثقب و تتلاشى . يلاحظ أن الليل يعتم عن ذي قبل على القرن الذهبي وآن أوان العودة إلى المدرسة الداخلية . مغادراً الرصيف ، يمشي إلى جسر أونقابي . لا يمتلك الشجاعة المناسبة لكي يصعد إلى الشاطئ على قدميه وينادي سيارة أجرة صائحاً : «إلى شيش ـ هانيه! » .

❖ ❖ ❖

حينما هبط من الغرفة ، أدرك أنه لم يكن في معرفتها . من الآن فصاعداً ، يهبط الليل مبكراً . زحف الخريف ، النهارات تطول أكثر فأكثر . أمام المرفأ ، يأخذ الطريق الذي يفضي إلى تيبيباشي . يمشي إلى جانب البنايات القديمة ذات الحوائط المعتمة .

الشارع الرئيسي ينحرف يميناً إلى منحنى صغير ـ تحمل باصات وسيارات أجرة حشود السبت نحو دور سينما بأي أوغلو ، والحانات وأماكن اللهو ، مارة قربه كما الإعصار . يتابع طريقه ، دون أن يرفع رأسه أبداً كي يتطلع إلى البنايات المبنية في القرن الأخير ، وشرفاتها البارزة . لا تثير هذه المدينة ولا هذه البنايات المقبضة المتقابلة على امتداد الشارع اهتمامه . مثل طالب مدرسة

Twitter: @ketab_n

داخلية غادر ضيعته الأناضولية الصغيرة الهادئة التي ولد فيها ، كبر وعاش فيها أجمل أيام طفولته ، فهل يستطيع معرفة تاريخ بيرا السري ؟ ببساطة ، يعرف الحانات والمواخير ، هذه «الوحدة ذات مذاق البطيخ» حسب تعبير كاتب سكير ، معتاد على الآلام ، على الانفصالات ، ومتردد على هذه الشوارع . لماذا اهتم بتاريخ هذا البناء الحجري الذي سيجتازه من فوره ، والذي تطل واجهاته الجانبية على زقاق ذي درج صاعد إلى مساكن المتعة ذات الستائر المسدلة ، ونحو البنايات المشمسة قرب . محطة القطار؟ أنا من أعرف ماضي هذا المسكن العتيق الذي يفصل شارع نرجس ، ويقطع بزاوية قائمة طريق التأسيس ، عن المرفأ إذ أنني ـ بينما تجوب عيناي في شوارع بيرا وسط حشود السبت ـ أذكر الكتاب المقروء قدر المهندس المعماري فايوري ضرورة وجود طابقين ، تصور دعامة حجرية حسبما مذاق العصر . لم ينس إضافة أفاريز في الطابق الأول ، والطابق الثاني ، ولا تجهيز الواجهة والحوائط الجانبية بخرجات على الطريقة اليونانية . حينما قطنه السيد ديلوجيس ، تاجر الجملة بشارع الاستقلال ، وأضاف طابقين فأصبح مالكاً لبناء ذي أربعة طوابق غير أنه فقد زوجه المحبوبة التي أُعجب الجميع بجمالها ، شتاءً في مسارح بيرا وصيفاً في شوارع بويوكاد الظليلة ! بعد الحداد ، زهد في الدنيا وانقطع عن الناس في مسكنه . بناء حجري ، خلف النوافذ المغلقة ، تسكنه ذكرى زوجه الجميلة . والآن ، وقد اختلطت الأرمدة ، ينام في مقبرة فريقوي الكاثوليكية إلى جوارها ، في القسم «اللاتيني» بسان ـ جون ـ كويزوزتوم . كلمتان منقوشتان على الشاهد : «ألم واعتزال» . ونوافذ مسكنه ظلت على الدوام مغلقة .

مر ، الرأس مطرقة ، أسفله دون أن يتطلع إليه . وان رفع عينيه ، لا يعرف أن يحل لغز هذا البناء ذي الطوابق الأربعة الغارقة في العتمة . ربما أراد أن يعرف لماذا ظل ضوء صحن الدار الساطع يتلألأ إلى اليوم في مسكنهم الريفي .

مشى على امتداد طريق الوحدة الفرنسية . بعد أن مر أمام مسكن السيد

Twitter: @ketab_n

فيري ، الصيدلي ، الذي يطل على حدائق قنصلية الولايات المتحدة الأمريكية والذي كان يقطنه قبلاً البارون دواندوفر وعائلته الكبيرة العدد ، انغرس في الشارع الذي يربط المسجد بحدائق الكروم في بيرا ـ بالاس غير أنه لم ير رجالاً يرتدون السواد ولا نساء أنيقات يرقصن على أنغام الأوركسترا . الستائر المصنوعة من قماش التول في الصالة مسدلة طويلاً ، لم يعد الموسيقيون يعزفون : «تعال يا بوبول» ، «بولكا الانجليز» ، «حب مضطرب» ، «حينما يموت الحب» . . من الآن فصاعداً ، أصبح راقصو الفالس قليلين للغاية . لكن بيرا ـ بالاس ، في سطوعها الإمبراطوري ، لم تبق على حالها . حينما ، مجتازاً البوابة الكبيرة ، نتجه شطر الصالة عبر الدرج المغطي ، نتخيل عودة سندريللا الى الحياة . وأعلى الشرفة ، في «السويت» ذي الأسقف المدونة والمقصورة المرمرية الفسيحة ، لا نكل من تأمل القرن الذهبي .

مستمراً في خطوه على الطوار الأيمن ، حاذى «كازا ايطالا» و«فندق كونتينتال» . خطر على ذهنه أن يستريح على دكة ، في حديقة مسرح تيبيباشي ، حيث تنوف صالات الاستقبال الخرائبية على اللوحات المقشرة لهذا البناء الذي اختلفت إليه العائلات اليهودية واليونانية والفرنسية والشرقية الثرية في بيرا ، حيث تتحادث حاشية السراي وأعضاء البعثات الأجنبية سياسياً ، وحيث تقام فيها الأمسيات والحفلات الباذخة . لكنه قرر أن يحتسي كأساً من البيرة في ممر الزهور . هذه المرة ، لن يهجر البتة الحانة بدون أن ينتظر البيرة التي طلبها . تذوقها في بطء . والتهم المشهيات والمقبلات المطهوة بالزيت الزنخ . يعرف الآن كيف هبط إلى جالاتا ، من طريق المحطة الشديد الانحدار حتى الغرفة الضيقة عديمة النوافذ الكائنة في شارع المواخير ، وكيف هناك ـ اتحد ، للمرة الأولى في حياته ، بجسد امرأة . لقد اتضح السر . نعم ، لكن قلقه الداخلي لم يتضاءل ، فالبلغم دائماً في حلقه عوضاً عن ذلك ، لم يعد يشعر بتعب في قلبه ، بل بالجوع .

Twitter: @ketab_n

اجتاز الطريق المعبدة ، تقدم بمحاذاة الحوائط العالية للسفارة الإنجليزية القديمة ، بالضبط بعد فندقي «فلوريا» و«إمبريال» . اتجه يساراً نحو طريق المرايا المغلق . مر تحت صفوف التماثيل ـ وبدون أن يعبر واجهات البازارات على ناحيتي الطريق الضيقة ـ دلف إلى ممر كريبل . ثم اخذ طريقاً أكثر ضيقاً ، وجد نفسه في ممر الزهور ، ومع كل خطوة يتعالى قلق في داخله .

جالساً ، مرة أخرى إلى الطاولة التي كان يحتلها ، في الظهيرة وهو خارج من المدرسة الداخلية لا ينظر إلى المرآة الجانبية الكبيرة . صحون المشهيات والمقبلات موضوعة على البراميل والطاولة المرمرية . جمبري ، كبد على الطريقة الألبانية ، شرائح المخ ، جبن أبيض ، فاصولياء بالصلصة ، ألوان حمراء وبيضاء وخضراء ، ذهاباً وإياباً ، تنفرج وتمتزج . لكنه لم ير هذه الكومة المكونة من درجات لونية مختلطة . وحيداً ، مثبتاً نظره إلى الفراغ ، جلس على المقعد العالي . وسط الصخب ، وضع كأس كبير من البيرة أمامه . طالب المدرسة الداخلية القادم من الريف إلى اسطنبول يحمل معطفه الباهت الألوان ، وقد ارتدى صداره الصوفي الذي حاكته أمه له ، وحذاءً مكسواً بالفرو من الداخل . في ذاكرته ، شارع مغبر ، صحن داره الخشبي الواسع ذو الطابق الواحد المقام وسط الحديقة والضوء الساطع ، الخامد أبداً منذ وفاة أمه . يريد أن يجد غرفة غير مضاءة ، كي يدخلها ، يقفز في العتمة على عدة السرير وينام عليها أبداً قادماً من أشجار السرو التي تحف أوراقها ، في المقبرة القديمة قرب المسجد والنوم يجتاح جسده ، تدريجياً ، ثقلت جفونه . إنه كأسه الثاني من البيرة يريد أن يرحل قبل أن يطلب كأساً آخر . سوف يخرج من الممر ، ويعبر الطريق المزدحمة ويبلغ سور المدرسة الداخلية . الحارس العام ، بالتأكيد ، كامن مستعد لمحو أسماء المتخلفين حتى يلغي رخصة إجازتهم الأسبوعية القادمة . الروح محررة ، سيمضي أمام غرفة البواب متمهلاً ، كأنه سيدخل إليها سيجتاز في الضوء الشاحب ، ساحة الشرف ، ويتجه إلى عنبر النوم ـ حينما سيبلغ الطابق الثاني يكون الرواق خالياً . إذ أن غالبية زملائه في مساكنهم ، وقتئذ البعض يتأهب

Twitter: @ketab_n

لتناول العشاء ، والبعض الآخر للذهاب إلى دور السينما أو مقابلة أصدقائهم سيفتح باب الرواق وينزلق إلى داخله بلا ضجة لما يضيء المصباح ، سيغمر ضوء أزرق الأسرة الخالية . لن يجد أحداً ، ماخلا ريفي آخر يغط في نومه في آخر العنبر ، والغطاء على رأسه . عارياً ، سيقذف بلا نظام ملابسه في الصوان وسيرتدي منامته . وقت رقوده ، سيجتاحه الندم . في نفس اللحظة ، سيذكر رغبته القاهرة في مقاسمة ليلته مع امرأة ناعمة مألوفة . سيكون مثقلاً بخزي الذهاب ، اليوم ، إلى هذا الماخور ، لأن الفكرة كانت تؤلمه منذ أسابيع ، كدودة ، حيوان جائع ، عندما استقل الباص إلى تيبيباشي ، وابتعد إلى باي أوغلو ـ مجتازاً جسر أونقاباني ، متنزهاً في شوارع حي السليمانية النائي ـ يفكر في هذا اليوم من أيام الإجازة الذي بدده على ضفة القرن الذهبي ، بدلاً من الذهاب إلى صديقه أحمد ، في أتاقوي أو تأمل الحركة الدائمة للسفن والنوارس وقوارب الصيادين الجالسين في يانيقابي قبالة بحر مرمرة . مع ذلك ، كم هو جميل منظر البحر من هذا المقهى ! يتسع العالم مرة واحدة ، والمسافات تزداد . أنه هذا البحر ، هذه الرغبة اللامعقولة ، حيث المشهد متخم دوماً بفرح لانهائي ، وأنه رآه ، للمرة الأولى ، من نافذة القطار حينما رفع الغطاء ـ انزلق في الفراش ، أحس برجفة . يتدحرج كما كرية البلياردو ، وفي ضوء الرواق الأزرق ، سيتواجد ، ثانية ، أمام أحلامه ، هذيانه ، وسيركض إلى هناك ، حيث تركها .

يتطلع إلى ساعته . لم يزل هناك بعض الوقت . يجب أن يطلب كأساً آخر من البيرة ، أو حتى يطلب كأساً كبيراً من الفودكا ، جبناً أبيض ، كبد على الطريقة الألبانية ، طاجن خضروات ، أسقاط مشوية . . وبعد ، لم لا نخاعية (نوع من النخاع الشوكي يؤخذ من العجل والخروف) ، بطاطس محمرة ، أسماك السلطان إبراهيم المطهوة بالصلصة . لقد أرسل والده مبلغاً طيباً إليه ! أمر طيب ، لكن إذا عاد متأخراً إلى العيش ؟ لاشيء يهم . هو ، على الأقل ، ينام دون أن ينشغل بأي أحد . فضلاً عن ذلك ، اقترب من التقاعد . في عمره ، لا يتردد

Twitter: @ketab_n

على هذه الصالات ولذا ينام . ويقول انه معلّم الألعاب الرياضية ! كم هو بائس هذا المرتعد! اليدان ، الساقان ، يرتجف جسده كله . كم هو بائس هذا المرتعد ! يزيد صخب العانة تصاعدياً كؤوس البيرة احتسيت على دفعة واحدة ، صحون المشهيات والمقبلات راحت تختفي . زجاجات العرقي نفدت منذ فترة . هذه البدينة ، التي ستمضي من طاولة إلى أخرى ، ماسكة آلة تصويرها ، ستثير التوتر . بعد الصخب ، أنها روسية شقراء . إبنة أمير ثري قدم إلى اسطنبول هارباً من البلاشفة هناك ، صودرت أملاكهما . بعد الروسية الشقراء مثيرة التوتر ، جاء وقت الغجري نافخ الكلارينت العجوز ، وفتى ناحل يدق على طبلته ، وراقصتان . ترقصان وهما تهزان مؤخرتيهما . يعلو هيجان الجمهور مع زيادة النشوة ، يتوتر المناخ . ترفع الكؤوس بجنون ، و يتقطر العرق على الوجنات والأعين الحمراء من دخان السجائر ستثبت على الأذرع العارية والقامتين الممشوقتين . ستغطي أنغام الكلارينت على زفرات وحسرات المستمعين بينما ستكف الموسيقى ، سيطفح القلق به وتلمع أسنان الغجريتين . وتحت أصابعهما تتسارع طرقات المعالق الخشبية (أداة موسيقية في الموسيقى الشعبية التركية).

الآن يجب أن ينتهي من كأسه وينسلّ خارجاً . لكنه ـ بدلاً من أن يعود إلى عنبر النوم ـ يريد أن يصفع هذا الشاب ذا الوجه المنتفخ الجالس أمامه ، يمسكه من ياقته ويلقيه أرضاً ، بخصلات شعره المدلاة برخاوة على فمه ، يثير فضيحة بقذف صحون المشهيات والمقبلات وكل شيء عليها ، يجبر هذه الوجوه على العودة إلى متحف الرعب ، يخرب الحانة قبل أن تشرع الروسية البدينة في بدء دورتها و ـ ولكي ينهي ـ يزدري حظائر جالاتا وقراقوي المصنوعة من القصب ، ويفك أزرار بنطاله ويتبول بين المقاعد ـ ترفع البيرة من رغبته في التبول . لها رغوة مثل بول الحصان ، والبيرة ستكون دائماً بيرة ، بيرة مضغوطة! نعم ، من الضروري أن يعتاد على حشود اسطنبول ويصيح مثل المعتادين على الممر . بيرة مضغوطة .

Twitter: @ketab_n

يريد أن يصيح ، لكنه بلا صوت . جاثماً على المقعد الطويل ، يريد أن يصيح بكل قواه ويبذر الفوضى . رأسه تدور ، لا يرى بصورة جيدة . يعتقد أنه في اللحظة التي سيمد يده فيها للنادل سيتأرجح في بطء من على مقعده ، وسيقع جسده على الأرض بين النشارة وحيث تمتزج أعقاب السجائر ببقايا المشهيات والمقبلات قبل أن يصطدم بالطاولة المجاورة ويقع على الأرض صاح :

«بيرة مضغوطة!» . لكن صوته الرقيق ضاع في جلبة الحانة .

❖ ❖ ❖

لا يعرف كيف وصل إلى هذه الصالة بالمستشفي ذات الحوائط البيضاء ، ما جرى ، مع من تكلم قبل أن يتمدد على هذا الفراش الصلب الضيق . الشيء الوحيد الذي يتذكره ، انه نهض عن المقعد كي ينادي النادل . ثم ، لا يتذكر شيئاً . «بيرة مضغوطة! » ، هكذا صاح . بالضبط بعد أن انطفأت الأضواء ، وتعتم العالم . تبدى خلاء عميق وعلت وخزات في رأسه . حينما لمست يده رأسه ، مست أنامله قطرات دم ملتصقة بشعره . فجأة اعتراه خوف عارم . إذاً ، إنه مصاب في رأسه . هل سيموت ؟ سترسل المدرسة الداخلية برقية إلى ذويه . سيأتي والده إلى اسطنبول كي يصحب جثمانه ، وستفقد أمه قواها من كثرة البكاء . ستكون هناك حالة من النشاط في المسجد الصغير الواقع قرب مسكنه ، وفي نفس المساء ستتلو أمه سورة «يس» أربعين مرة ، وهي جالسة في ضوء صحن الدار الساطع . يتخلى عن الاحتمال الثقيل لموته . يسمع همس أمه . تتهادى ألفاظ الابتهالات بالعربية إليه حينما تحف أوراق أشجار السرو من الرياح ، هل تتحدث العربية ؟ هل ظلها ندي مثل ظل شجرة التوت ؟

تذكر فجأة أنه لم يدخل البتة إلى المقبرة الكائنة أمام مسكنهم ويسمع همس أشجار السرو من خلف الأسوار المتصدعة . هل أرضها لطيفة مثل أرض أشجار التوت ؟ هل تمتص الموتى في أحضانها ؟ قلقاً من عدم وجود إجابة على هذه الأسئلة ، يشعر أن رأسه تثقل تدريجياً والحوائط البيضاء تعتم شيئاً فشيئاً ،

Twitter: @ketab_n

يبدأ في العد حتى يلتقي بالنوم .

في حلمه ، يتجه ناحية حائط المقبرة والرأس مخفية بين يديه ، يعد : «واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة . . . » . يسمع صوتاً خلفه ، ثم تبتعد الخطوات . «ستة ، سبعة ، ثمانية ، تسعة ، عشرة ، انتبه لأنك تغش! » . يفتح عينيه ، وحينما يدير رأسه ، كان الشارع خالياً . أين يختفي الصوت ؟ يلقي نظرة إلى المقبرة ، عبر الشق ، لا أحد . وإذا كان مختفياً خلف قبر ؟ يريد أن يدخل إلى المقبرة كي يراه عن قرب ، لكن الشجاعة تنقصه . هبط الليل . يعرف بالكاد أن الجان يعيشون في المقابر ، ويلعبون التخبئة مع الموت ، في العتمة . يمشي حتى ساحة المسجد الصغير . لا أحد عند الفسقية ولا خلف شجرة الصنار . بطيئاً ، تغطي العتمة أوراقها . فجأة ، يعرف خبراً : إذا رجع إلى مسكنه متأخراً ؟ يوصد والده باب الحديقة بالرتاج دائماً ، بعد أن يغلق صنبور المضخة ويملأ الجرة التي يتركها بترو طوال الليل ، «هذا ليس وقت اللعب ، هذا يكفي ، اظهر! » ، يصيح عليه لكن أحداً لا يظهر ، على اعتقاد أن الأرض واراه ترابها وابتلعه ، «كل واحد في مسكنه! المزارع في مزرعته والذي بدون مأوى في حجر الفئران! » . مغادراً ساحة المسجد الصغير ، يحاذي حائط المقبرة . للمرة الأخيرة ، يرنو إلى القبور عبر الشق . تتبدى مخيفة في الظلام . سنقول أقزام بصدارات بيضاء للبعض جمجمة مدببة ، البعض الآخر يطرق رأسه ، ووجهه بين يديه ، أعينهم خضراء . يعتمرون عمامات بيضاء . صامتة وغريبة كمخلوقات من عالم آخر سمع حفيف أوراق أشجار السرو وسط الرياح لامرأة ترتدي حجاباً على رأسها تجتاز الشارع . يركض ويقطع الطريق . ليس لديها وجه . لها جبهة ، عينان ، حاجبان ، وجنتان ، أنف ، فم ، ولكن لا وجه لديها . بدلاً من فقدان الأمل ، أخذ يبكي ويمشي في الطريق حتى آخره ويؤوب إلى مسكنه على قدميه . يجلس أمام باب الحديقة . يشعر بيد تعبث بشعره ، يلتفت كي يراها ، لا أحد ، يشعر برجفة الرعب . كان الليل يخيم على المكان في الداخل ، الأضواء مضاءة ، الستائر مسحوبة . يد تلمس كتفه . هذه المرة لا

Twitter: @ketab_n

يلتفت . تمس رقبته ، شعره . لا يلتفت . وحيداً في العالم . نفس اليد تربت على ظهره وتجذبه . يلتفت . لا أحد . أين اختفت ؟

في الواقع ، أين اختفيت هذه الليلة ، لما كنا نلعب التخبئة واستدرت ناحية حائط المقبرة . منذ سنوات عدة ، لم أتوقف عن طرح هذا السؤال دون أن أجيب عليه . بدأنا وكان دوري هذه المرة أن اكتشف مخبأك . عددت حتى عشرة ، ثم بحثت عنك . منذ ذاك ، مرت السنوات لم أجدك أبداً . أحياناً ، أستيقظ في الليل . أضيء مصباحي ، وأتطلع إلى البندول . لم يزل العقرب الكبير موجوداً ، و إنما العقرب الصغير منتزع . حالما انهض ، أقفز أربع درجات دفعة واحدة في الأسفل ، شارع فيجيه خال . أمشي في شارع فندق المدينة الغارق في العتمة وأدلف إلى المحطة ، تنعكس أضواء الشقق على صفحة مياه نهر السين . ناظراً إلى أعلى جسر ماريا ، أرى وجهك المدور الشاحب على المياه ، أنزلق تحت الجسور ، منجذباً بفعل التيار . أقابل مجموعة من السياح الذين يدخلون إلى فندقهم . الرجال في بزات السموكنج والنساء في أثواب السهرة . استفسر منهم : «هل قابلتهم امرأة ترتدي حجاباً على رأسها؟» . لا يفهمون شيئاً . أكرر نفس السؤال بجميع لغات الأرض . «لا» ، أجابوا . لم ير شيئاً في شارع سان ـ ميشيل ، أوقف كل مار طارحاً عليه نفس السؤال ، «لا ، لم نر شيئاً» ، أجابوا . واصلاً إلى حديقة لو كسمبرج ، أمشي في شارع سوفلو ، أمامي ، ينتصب البانثيون في الليل ، بأعمدته البيضاء وقبتها ذات الصليب . الحارس ، الشاربان معقوفان ، لا يعرف البتة أين تختفين ؟ أجتاز مدرسة ليسيه هنري الرابع وأتجه إلى شارع ديكارت . أغلقت المطاعم أبوابها . منذ وقت طويل في نافذة ، عبر فرجة الستائر ، يتسلل خيط من الضوء . أعبره ثم أولج هذا المقهى بميدان الكونترسكارب الذي يظل مفتوحاً طوال الليل . أسأل النادل خلف مكتب الصرف «دعني وشأني» ، يدمدم بعد أن حدق فيّ بعين شبه نائمة ، «أنا متألم!» . أخرج من المقهى وأتجه إلى شارع مجاور . حينئذ ، أمامي على اليمين ، أهبط الطريق المنحدر حتى قراقوي . مرة واحدة ، أجتاز الممر ، أجد نفسي على

Twitter: @ketab_n

جسر جالاتا . الباخرة الأخيرة المتجهة إلى البوسفور تتهيأ للرحيل . أندفع وأنا ذا على الجسر بصحبة النجوم . نتقدم شاقين الأمواج . عبر تفسفر علق البحر ، الباخرة المضاءة تقلع نحو برج لياندر ملقياً نظرة إلى مقدمة السفينة ، أرى رجلاً خلف كشاف النور .

ـ مساء الخير يا عزيزي ، قلت وأنا أقترب منه ، أتمنى لك مزيداً من الشجاعة .

ـ أوه ! أعملُ ما عليَّ!

ـ كشافك غير آلي ؟

ـ لكن لا ، يا سيدي ، لنرى ، إننا على ظهر السفينة «بلا ـ هم» ؟

في الحقيقة ، كيف نسي أن السفينة «بلاـ هم» تضمن الخدمة الليلية في البوسفور . من وقت إلى آخر ، في فسحة مستقيمة ، يصوب الرجل كشافه ، يمسح الضوء مساحة الحياة المعتمة ، مضيئاً ، دورياً مروحة سفينة الشحن الراسية في مرفأ تروفانا ، قوارب الصيادين التي تعلق شباكها ، المعالم المغطاة بالأعشاب البحرية ، سرب من أسماك رئة البحر .

ـ وفي الشتاء ، ألا تشعر بالبرد؟

يريني معطفه .

ـ على ظهري ، لا أخشى شيئاً يا سيدي ، حتى وقت الثلوج طوال عشرين عاماً ، كنت وقّاداً على هذه السفينة . الأشعة الحارقة أحرقت جلدي طوال عشرين عاماً ، اكتويت بالنار . الآن ، اقتربت من سن التقاعد ، هل سأكون نوتي الإشارة أمام عواصف البوسفور؟ أنظر ، كم جلدي مصفوع بالشمس .

يفتح أزرار معطفه كي يريني جذعه المحترق . أنا أيضاً ، قلبي يحترق من فقدك ، لكنني تجنبت الكلام عنك إليه . مهما كان الأمر ، ستخرجين من مخبأك لكن الشعلات التي تستهلك هذا الإنسان لن تخمد أبداً . ستخرجين

Twitter: @ketab_n

من مخبئك كي تلمسي هدفك تحت حائط المقبرة . انتبهي ، إذا صحت «تفاحة» . اخرجي ، إذا صحت : «كمثرى! » . ظلي كما أنت . «ليمون ، ليمون! » هل قلت «ليمون» أو هل صاح آخر : «لن أخرج أبداً» ؟ سمعت ضجة قريبة أخيراً ، اقتربنا من رصيف سكوتاري يهبط جميع الركاب . أبقى وحيداً مع نوتي الإشارة على طرف السفينة «بلا ـ هم» .

ـ نتجه الآن مباشرة إلى أناضول هيسار ، قال لي .

يتمدد على مقعد خشبي ، متدثراً في معطفه . أحتل مكانه خلف كشاف النور وأوجهه شطر مساكن الضفة . أتقصى أعماق الغرف المظلمة . لم تكوني موجودة ، أين اختفيت؟ هذا يكفي ، أخرجي! «تفاحة ، تفاااحة! » أستهوي ، بالأشعة المضيئة ، القوارب والأزقة الموحلة وأوراق شجرة الصنار التي تميل أغصانها على صفحة البحر ، قرب رصيف تشجنلقوي العائم . يتملى الضوء بالنظر إلى الواجهات الرمادية ، أرصفة الركوب والشحن ، صالات الانتظار ، أنت غير موجودة في أي مكان . أغلقت المطاعم أبوابها . أزقة ، روابي وجسور خشبية صامتة بعد ذاك تتبدي قصور يالي الخشبية . أصوب كشاف النور إلى بلاطات الرصيف المهشمة ، التجاويف المطحلبة التي تأوي القايق ، الشقوق التي تنقض المياه المزبدة عليها حالياً ، القصر مهجور ، وهو من عرف أياماً مجيدة حينما كان السلاطين سادة القارات الثلاث ، يأتون للاصطياف بقواربهم القايق الذهبية من الجانبين في عظمة ، مع النسر الإمبراطوري المحفور في المقدمة ، وفي هذا الزمن ، خلف الأسوار العالية للحديقة ، تمتزج أنغام آلات العود والكمان والقيثارة بأصوات المغنين و ـ في الضواحي ـ فقط النوارس أو المجاذيف تضرب المياه . ينتصب البناء القديم وحيداً في العتمة ، بحوائطه التي نخرها السوس ، نوافذه المهشمة ، صالونه الرحب المقام على صفحة المياه حيث تهدد أمواجه بالدخول إليه . أوجه كشاف النور نحو هذا الصالون حيث يراقص النهار الأمواج والليل الخفافيش بعد أن لمست الصوفا ، الأرائك المغبرة ، إطارات النوافذ المتربة ،

Twitter: @ketab_n

الحوض المستطيل المبني في الوسط ، إذ أن الفسقية ناضبة منذ زمن ، والضوء يتذبذب في مرآة فينيسية . في نفس اللحظة ، كما يخرج عند الخروج من حلم مشوش ، يتلألأ ملاط السقف وتنعكس المياه السوداء عليه . فضاء الثانية ، يرشح قصر يالي ضوءاً ، لكنك غير موجودة به أبداً ثم يكسو الليل كل شيء ، أصرخ على مقدمة السفينة : «كابتن ! اصحبني إلى جسر جالاتا ! يهتم آخر بكشاف النور! » . حينما اعتادت عيناي المغشيتان في بطء على العتمات ، تنزلق سفينة «بلا ـ هم» على الأمواج . فجأة ، ألحظ إن التيار يجذبنا نحو الجسر . نوتي الإشارة نائم ، متدثر بمعطفه . ليس هناك أحد على مقبض الدفة . تتحطم السفينة على الرصيف . تتطاير قطع العوارض المنخورة ، المغطاة بالطحالب ، إلى شظايا ، لكن لا ضجة مسموعة . أطفئ كشاف النور واقفز إلى الأرض .

ألفي نفسي وحيداً على رصيف سيرقاجي . لقد تقيأت السفن المسافرين ، والصيادون غائبون ، حتى بائعو الليمونادة وعصير الوشنة (نوع من ثمر الكرز) واللبن الرائب ، الذين يرنّون الكوب على الصينية لكي يستثيروا والزبائن فيما يدفع الآخرون عرباتهم اليدوية ، الصبية الذين ، وقد سال الزيت من فمهم ، يزدردون بملء الفم سندوتشات التونة ، العاطلون ، الجنود الذين أخذوا إجازتهم اختفوا ، وكذا الخادمات اللاتي يرتدين غطاء الرأس ، الأزواج الشباب ، البدينات الثرثارات المنتظرات الباصات التي ستنقلهن إلى أحياء القرن الذهبي النائية ، أو إلى الضواحي ، وراء الأسوار . العجوز ، الذي يؤجر منظاره الحربي ، اثر الحرب العالمية ، لرؤية قمة برج جالاتا المخروطية ، برج لياندر ، سكوتاري ، الناقلات البترولية تستعد لعبور البوسفور ليست هنا ، ولا هي أيضاً . المنظار ، نفسه ، لم ينقل من مكانه . إذا نظرت عبره ، هل ستظهرين لي؟ وجهك المدور الشاحب ، هل سيتبدى لي؟ هل سأشعر بيدك تربت على شعري؟ لكن المنظار مغلق ومقيد إلى الرصيف . بينما ظللت مرتبكاً أمام السفن الخالية المربوطة إلى كل ضفة ، وأضواء النيون الحمراء والصفراء والخضراء ، والمعالم والمعلبات

Twitter: @ketab_n

المحفوظة التي تطفو في الدوامات ، يقترب صبي حينها ، وقد أمضى الليل تحت الجسر .

ـ يا سيدي ، قال فاتحاً شفتيه الملوثتين عن ابتسامة ، ماذا لديك يا سيدي؟ عند رؤيتي وجهك ، أعتقد أن جميع السفن غرقت في البحر الأسود؟

ـ ليس هذا يا صغيري . لكنني لم أجد أمي بعد ، نلعب لعبة التخبئة معاً . وقت العد حتى العشرة وبدأ البحث ، اختفت ومنذ ذاك وأنا أبحث عنها .

ـ لا تفعلها . أنا أيضاً فقدت أمي . قتل البائسة عشيقها بتسع ضربات ، بالمدية . هكذا ، إذا اعتقدت بأنك ستجدها ، تستطيع أن تركض إلى الأبد!

أربتُ على شعره المجعد ، عيناه سوداوان وأنفه صغير . من جيب بنطاله ، يخرج سيجارة ويقدمها إلى .

ـ هيا ! أشعلها ، خذ شيئاً من وقتك .

أدخن نصفها بسحبة واحدة ، ـ تاركاً الصبي في مكانه أبتعد إلى ميدان امينونو . أخترق الصمت الليلي لهذا المفرق ، في مفترق الطريق ، الذي يمثل ، في وضح النهار ، صدي صافرات السفن ، آلات تنبيه السيارات ، طنين الباصات ، وحيث ترن خفقات أجنحة الحمامات ، نداءات بائعي المياه وصياحات الباعة الجائلين ، الحمّالين ، الشحّاذين وسائقي سيارات الأجرة الذين عَرّضوا قديسي الأرض للسخرية . وقد اجتزت أقواس المسجد الجديد ، أتحول إلى سوق الزهور هناك سأرى السيدة لابين ، المهيبة على مقعدها ، التي تمارس التنجيم وهي تقبض ـ بأسنانها المدببة ـ على قصاصات ورقية مرسوم عليها البروج . بعينيها المتقدتين ، شاربيها الطويلين وفرائها الأبيض ، تعرف بالتأكيد أين تختفين لكن السيدة لابين غير موجودة في النواحي منذ وقت طويل . يجب أن تنام في قفصها ، تأكل جزرها . كذلك ، لم أر الصقور والببغاوات المعروضة للبيع ولا الأسماك السابحة في الأحواض صاعداً إلى محمود باشا ، بلغت البازار الكبير الذي لم يزل مغلقاً . حينما يفتح في الغد ، سأدخل من كل باب من أبوابه

Twitter: @ketab_n

الثمانية عشر ، وأذرع الأزقة المزدحمة أتساءل إذا كانوا رأوك عند الصيّاغ ، بائعي السكاكين والمرايا ، المنجدين ، بائعي الأبسطة والأقمشة والتوابل في ضوء النهار المرشح عبر النوافذ المقوسة للقبة ـ وأمر بجميع المقاهي والمطاعم ومحال البازار الكبير . تحت السقيفة ، سأفتح العلبة الكبيرة ، لأجد داخلها علبة أصغر ، وهكذا وستخرجين . لكن الفجر لا يريد البتة أن يأتي . يواجهني البازار الكبير بأبوابه الثمانية عشر ـ مثل قصر متين منتصب على جسر متحرك ، ينتظر ما وراء أسواره ، أبراجه الصغيرة و مقاذفه عائداً أدراجي عبر طريق نوروسماينيه ، أمشي إلى الخزان البيزنطي ، قبالتي ، حوائط سانت ـ صوفي الصفراء تنتصب واقفة في العتمة . في هذه الساعة الليلية ، جناح الكنيسة معقم ورطب مثل بطن الحوت . ربما تختفي خلف العمود المبلل أو في أعماق جرة مرمرية لكن البوابات مغلقة ومن الصعب الدخول إليها . لا أستطيع حتى الهبوط إلى سراديب الخزان المعتمة ، لأنني لا أتحصل على مصباح . قربي ، كل شيء ينشر العفن في نبع أحمد الثالث ، بسقفه المتعدد الأدوار وحوائطه المرمرية البيضاء وزخارفه النباتية الملتفة الأغصان وفسيفسائه اللامع . أترك النبع خلفي وأدلف إلى ميدان هيودروم . تنتصب المسلة على اليسار ، الحمام الخرب ، مياه الحوض ، الأشجار الساكنة الأزهار لا تهتز بتاتاً . أرى مأذن المسجد الزرق شاقة الليل ، تنغرس في جلدي بدورها ، المسلة والعمود الملتوي يخترقانني ، الألم يثبت الجسد . من ناحية إلى أخرى ، أعبر الميدان وأتجه إلى شارع صغير يهبط نحو البحر بعيداً نوعاً ما ، وجدت نفسي قبالة أسوار بيزنطة المتداعية ، التي اكتسحتها الأعشاب . في الضواحي المكدسة بالسكان في الأسفل ، تلمع الأضواء هنا وهناك . علي أساس أنني اتجه إليها ، تضيق الأزقة شيئاً فشيئاً . في لحظة ، فقدت رؤيتها . إنه الليل البهيم . فجأة ينبجس حائط المقبرة المتهدم أمامي ، أتسلقه وأبحث عنك خلف القبور . منذ زمن ، تحول المسجد الصغير الملتصق به لغرض آخر . لا أرى أشجار السرو . قطعوها . صفير الرياح لا يصلني . الشواهد الحجرية منثورة على الأرض ، نصف مدفونة . بعد أن فحصت

Twitter: @ketab_n

الأركان عدت ، سألقي نظرة من وراء شجرة الصفار التي تنتصب وحيدة وسط ساحة المسجد الخالية . لست هنا . أدخل إلى مسكننا في العتمة ، وأقعد ، منهكاً ، أمام باب الحديقة ، وحيد في العالم ، اليد تربت على ظهري وتجذبني ، لا ألتفت ، لا أحد .

❖ ❖ ❖

هبط من عنبر النوم وـ سالكاً طريق الأروقة الضيقة ـ إتجه إلى الساحة الداخلية . كان الصمت يسود أرجاءها . صخب المدينة الذي يتسلل عبر النوافذ المفتوحة لا يأتي إلى هنا . اجتاز ملعب كرة السلة وجلس على إحدى الدكك الخشبية التي عفنتها مياه الأمطار . تطلع إلى الأسوار العالية التي تحيط بالساحة ، والتي تقشر طلاؤها بالضبط ، أعلاها السماء . رأى سحابة مطرية تتهادى ثم تسكن على مستوى أسقف المدرسة الداخلية . تعتمت الساحة . مغادراً مساحة أرض ملعب الرياضة المبنية بالباطون ، يرتد الضوء إلى الأعلى نحو النوافذ المقابلة له كأنه يبحث عن علبة سجائر في جيب معطفه ، تذكر أن التدخين ممنوع! اكفهر وجهه ، أراد أن يمشي على أرض ملعب كرة القدم ، الساحة الكبيرة كما تسمّى ، حيث سُمح للتلاميذ الكبار بالتدخين ، وهناك استند إلى عارضة المرمي ودخن سيجارة قبالة النوافذ المغلقة للبنايات الحجرية ما وراء السور العالي لكن أحداً من الطلبة الداخلين لم يلحظه ، بدون شك سوف يثير فضيحة ، إذ أن الساحة الكبيرة محجوزة لهم . حق التدخين ، ضرب الصغار من أجل نعم أو لا ، الغناء بملء القلب والشرب . . كل هذا مسموح لهم في أمسيات الإفراط في الشرب ، يستطيعون العودة متأخرين دون الالتفات إلى الحارس العام ، وفي الصباح النوم حتى ساعة الحصة الأولى ، بعد أن يرن جرس الاستيقاظ ، وهم يخلون عنابر النوم . في هذه المدرسة الداخلية ، أثر العصر العثماني ، كان تفوق الكبار على الصغار مطلقاً مثلما هو الحال في كل مجتمع تراتبي . هذه المؤسسة ، مثل أي ثكنة أو مركز جنود الانكشارية ، وطنت نظامه

Twitter: @ketab_n

وفرضت قوانينه ، سحق الكبار للصغار ، ازدراء القوي للضعيف ، الاسطنبولي للريفي ، ركيزة نظامها . من يجرؤ على تحطيم التقاليد وتغيير النظام المثوي؟ وهكذا يتحمل الصغار ، في صبر ، المضايقات وهم يحلمون بيوم يلعبون فيه في الساحة الكبيرة ، الثأر من ضربات الكبار التي أخذوها على مدار دراساتهم . نعم ، إذا كان تلميذ من الصفوف النهائية رآه في الساحة الكبيرة ، يستطيع أن يطرده بضربات متتالية ، دون أن يعير أذناً لحجة عطلة نهاية الأسبوع . ومع ذلك يحب الصمت وظّل الساحة الداخلية . من الأفضل انتظار المطر وتخيل جزءاً من لعب السلة .

❖ ❖ ❖

لقد بدأت المباراة بصفارة الحكم! استعد الفريقان جيداً ، لنرى أيهما يمسكها ، فريقنا يرتدي الأحمر والأصفر ، والآخر الزائر الأخضر والأبيض . فريقنا على اليسار . تمريرة . الكرة الحمراء تطير . سلة ! يدوي التصفيق في الملعب ويثير ارتجاج الحوائط . هذه المرة سجل منافسونا هدفاً ، الكرة بين يدي لاعب أسمر ضخم ، تمريرة لاعب يركض من الخلف ويستولي عليها ويقفز سلة ! هذا الجزء يبشر بمباراة قوية على مدار الدقائق يتأجج الحماس يتبادل الفريقان تهديد السلتين ، أردية اللاعبين ترشح عرقاً أمامه ، تروح الأجساد وتأتي في الاتجاهين . الألوان الصفراء والحمراء والخضراء والبيضاء أنشأت تمتزج وشيئاً فشيئاً أخذ اللاعبون ، بعضلاتهم الممدودة وأذرعتهم وسيقانهم وأحذيتهم الرياضية ، هيئة لا حقيقية . لقد تعب من هذه البقعة ، بقعة الألوان المتحركة ، التي تتبدد ثم تلتحم تارة هنا وتارة أخرى هناك ، على الأرض المبنية بالباطون المحاطة بالأسوار العالية . لم تزل نهاية المباراة بعيدة ، قطع الحكم المباراة ، فخلت الأرض من اللاعبين والمشاهدين . لبث وحده في الساحة يريد أن يبتكر لعبة أخرى ، ثم عدل عن هذه الفكرة . رحل الجميع ، تباً لهم . دامت المباراة فترة ، فضلاً عن ذلك ، سوف تهطل أمطار غزيرة .

Twitter: @ketab_n

في الأعلى ، أقصى السور ، تصفو السماء خجلة ، اقتنصت رياح الجنوب سحب المطر التي تهدد بالهطول على الأسقف ينطرح لون رمادي ، كئيب ، على الساحة . يضيء بإبهام ، المساحة المغطاة بالباطون ، عمودي السلة ، الأعشاب المنبجسة من الأرض ما وراء الأسطر بغرابة ، الأمر واضح في اللحظة التي تمطر فيها ، تجلب رياح الجنوب السحب بعيداً والسماء تصفو تدريجيا ـ تبدى ضوء مرصد في الأسبوع الأخير ، بالضبط في اللحظة التي استعد فيها للعودة إلى المدرسة الداخلية ، دلف إلى جالاتا ، ومن هناك إلى شارع المواخير ، في الضوء الكامن الذي يغمر الشارع . هذه المرة ، قرر ألا يخرج خلال عطلة نهاية الأسبوع . حتى الصيف ، لا يضع قدميه في الفصول الدراسية والأروقة وحدائق المدرسة الداخلية وإذا حاز على رخصة من الحارس العام ، سيمضي يومياً إلى هذه الساحة المعتمة والمكتبة و أشجار الصنار والحديقة . خائفاً من الخروج بعدما جرى له ما جرى الأسبوع الفائت ، يفكر أن المدينة ، وراء اللوحات المطلية بالأخضر في ساحة الشرف ، في الحقيقة ، و تتكشف المدرسة الداخلية ـ التي توجد وسط هذه الأوحال الشاسعة ـ راسخة مثل قصر منتصب على روابي المدينة السبع ، أو جزيرة منعزلة محاطة بالمارة والشوارع ومساكن باي أوغلو القديمة في نهاية الأسبوع ، حينما يرجع معظم التلاميذ إلى عائلاتهم ، يعطي صمت الحدائق الخالية والملاعب الرياضية والأروقة وقاعات الدراسة الإحساس بالطمأنينة .

❖ ❖ ❖

هو ذا وحيد في ساحة المدرسة الداخلية الخلفية ، بعيداً عن حشود السبت الذي تملأ الشوارع والمقاهي ودور السينما . اختزل عالمه إلى أمتار مربعة قليلة ، لا يستطيع أن يذهب إلى الحديقة ، إذ أن هذا الأسبوع ، كما قال التنين ، تحت الملاحظة في عينيه ، تلاميذ المدرسة الداخلية صبية لا يتحمل أن يؤكد في نظرهم ، الفهم والتسامح في هذه الحالة ، يزعجونه . . إذا لم يحترموه ،

Twitter: @ketab_n

سيعاقبهم جميعاً ، حتى من التبول ، المدرسة الداخلية تحتاج إلى نظام ، إنها ليست المقهى الذي يقع في الزاوية ، ثكنة ، مدرسة ، لا اختلاف من ليس له ذرية يعض على أصابعه «وإذا كانت له» . يشعر مسبقاً بالجنة . فقط ، كان هو الوحيد الحاضر ، ومعه بعض تلاميذ الفصول النهائية ، الذين يمتلكون حق التنزه في الحديقة . حينما يكون منشغلاً ، يستسلم لعمله ، حتى في الأوقات الصعبة ، كي ينهي الملل وينسى عزوبيته خلف عويناته ذات الإطار الذهبي المدور ، يتأمل اسطنبول مبسوطة تحت قدميه . اسطنبول يافع ذو بشرة بيضاء يعرف في الحمام جسد بلا بقع يحوي الرطوبة والشفافية من القدمين إلى الرأس ، وردي وبلوري . له قامة أشجار السرو ، شفتاه ياقوتيتان حمراوان ، أسنان لؤلؤية . عيناه ثقيلتان من النعاس الذي يخلّف النشوة .

اسطنبول زير نساء جلده ناعم لطيف فواح ، ذو ألوان لائقة . وقوس حاجبه وسواد شعره؟ دون أن نتكلم عن نصفه الأعلى ، عن عنقه المتكبر! متأملاً المدينة الواقعة في الأسفل ، يحلم التنين بفتية السراي ذي المنمنمات العثمانية حسبما عصر التوليب لدي الشاعر نديم .

«أنت يا اسطنبول ، لا مثيل لك ولا تقدرين بثمن!
لكل حجر من أحجارك ، أضحي بحياتي!
أنت حلية فريدة على بحرين مرصعين .
في الشمس التي تسخن العالم ، لا شبيه لك .
أنت جنة عدن حيث زهورك ذائعة الصيت ،
مظهر البهجة حيث زينتك عطيتك
السماء السابعة ، أهي مهزومة أم منتصرة؟
يا الهي أي منظر رهيب ، أي مناخ خلاب ! »

(*مطلع قصيدة نديم الشهيرة ، مدح إبراهيم باشا عبر وصف اسطنبول*) .

Twitter: @ketab_n

قرأ التنين جميع قصائد اسطنبول الغزلية . يعرف أن مدينة فاتنة بجمال فتيانها وفتياتها مع ذلك عاشقاً للكياسة واللياقة ، لا يعجب إلا بالحب الصوفي لذا يحمر حتى أذنيه حينما يحادث تلاميذه خارج الساحات . لكن في قاعة الدرس ، هذا المكان المقدس الذي يمارس فيه سلطته يثور كأسد فيما يشرح ندم . يهمهم بأبيات ليحيي باشا . نشيد إلى اسطنبول حقاً ، قصيدته المفضلة . المراهقون ـ الذين احتفوا بها ـ يسكنون أحلامه طوال الليل .

«يتعرون ، فرادى وأزواجاً
يتعرون ، فرادى وأزواجاً
يندفعون إلى المياه
يفتحون شفاههم الصغيرة
وأجسادهم فتية
في الأمواج عراة
يعرضون أنفسهم
كورود ، بنداوة ، مغلقة
تطفو على المياه»

❖ ❖ ❖

والمحيط ، هذا قاطع ، هذا قاطع الطريق ، كل فتى وسيم عار ، يكشف جاذبيته .

لما يتأمل المدينة من أعلى البلفدير ، يرى التنين في البداية . تبرز سانت ـ صوفي من الضباب بمناراتها الأربع التي تلتصق بقبتها الكبيرة ، «محراب فرح قبالة الجمال» ، بيت شعري (*من كتاب «الرغبة المضطرمة»*). بالتأكيد ، حوائط أسقف مزدانة بفسيفساء وتعاريج ذهبية/مبنية بالكلس والرمال ، وطيدة وراسخة في نفس الوقت ، سانت ـ صوفي محراب موروث من بيزنطة إذا حولنا بصره

Twitter: @ketab_n

عن الأبسطة وحوامل القرآن ورفعناه إلى الأعلى دائماً ، نحو النوافذ المقوسة ، نرى الملائكة البيزنطيين خلف الإطارات المذهبة التي كتب داخلها آيات مقدسة على مثلثات القبة الأربعة بين الأقواس التي تدعم القبة الرئيسية ، ملائكة بستة أجنحة تتألق ، تتأهب للطيران . نعم ، نعم جناح كنيستها ملاذ المسيح ، لأجل واحدة من قبابها ، نضحي بمائة خسروية (*ملك الفرس خلال العصر الساساني*) . لا نظير لك يا سانت ـ صوفي بالضبط قربه ، يعرف التنين قصر توبقابي وأبراجه الصغيرة ، أكشاكه ، حدائقه الإمبراطورية . يبتهج لما يتذكر الحريم وقوبيالتي (*أدبياً : تحت القبة*) . يجذب ارتداد الأمواج الزرقاء أمام واجهة السراي الأبيات الشعرية المكدسة في رأسه . يتطلع ، للمرة الأخيرة إلى اسطنبول قبل أن يلاقي تلاميذه بقلب عفيف ، مغسول برغباته المخجلة بعد غد ، سيبدأ حصته الدراسية بهذين الديستيكين (*بيتان متكاملا المعنى في الفرنسية*) ليحيى كمال :

«في الأمس ، يا اسطنبول العزيزة ، من الأعلى تأملتك
لا مكان لم أزره ، لم أخالطه ، لم أولع به
حتى موتي ، يغني قلبي إلى هواك!
معرفة أحد أحيائك سيملأ حياتي كلها» .

هكذا التنين ، أيام خدمة الحراسة ، الوحيد القادر على استنشاق هواء الحديقة العليل . ليست رائحة جيفة القرن الذهبي ، و إنما روائح ! اسطنبول العجوز المنعشة تسري في شعبه الهوائية الحانقة من الآن فصاعداً ، التنين هو نديم ، هذا الأبيقوري المجنون الذي اتجه ، سريعاً ، إلى مياه أوروبا اللطيفة في قايق ذي ستة مجاديف ، متنزهاً ، منشداً ملحمة ، مستنشقاً وردة اثر أخرى .

في بطء يبتسم ، يتخيل التنين يزرع الحديقة وهو يرتدي قبعة من الفراء . بغرابة لم يخلع عويناته ذات الإطار الذهبي ماسكاً وردة في يده المرتجفة ، يقربها من أنفه . غير أن رائحة البصل التي تتصاعد من عربة يد بائع الكفتة الواقفة في

Twitter: @ketab_n

توفانيه توقر منخاريه . يبتعد التنين وهو يسدهما بيده حينما صرّح في حصته الأولى «مادمتم تحفظون القصائد بالقلب ، تسمو روحكم» كان صوته يسمع في الصفوف الأخيرة :

«كفته ، قطع الخبز» (نداء بائع الكفتة)

أصاب التنين غضب رهيب : «وغد ! حمار! نبيع الكفتة هنا ! سأجعلك تندم على يوم مولدك!» . هكذا صاح باثاً الرعب في أنحاء الفصل . في الفسحة ، أوضح الراسبون للجدد أن التنين لا يحتمل المزاح . منذ هذا اليوم ، لم يجسر أحد على أن يضج .

في بطء يبتسم . يوم الأحد ، سيكون هناك امتحان شفهي عن الشعر العثماني . يتذكر أبياتاً شعرية حاول ، طوال الأسبوع ، أن يحفظها بقلبه ، يرددها خلال مذاكرة المساء ، خلال الليل حتى ساعة النوم ، في أروقة عنبر النوم ، وفي الصباح قبل أن يرن جرس الاستيقاظ .

«جنان النعمة جميع الحدائق ،

ففي كل ركن يطفح المرح» .

❖ ❖ ❖

رغبة تغييرك قبالة الأرض ، أي قلق! وفي الجنة تقارن بستان وردك ، أي فراغ!

❖ ❖ ❖

بما أن رغبة كل شخص تعرف الإرضاء ، يبحث أخوة الأمل عن ملجأ في مساجدك! إذا فهم هذه الأبيات الشعرية ، يحنقه هوى نديم لاسطنبول . بواسطة حسية هذا الشاعر وفن عيش عصر التيوليب ، سيكشف هذه «السماء السابعة» ، هذه المدينة العلمية المختلفة عن المدينة التي يشرد فيها وحيداً آخر الأسبوع ، اسطنبوله بشوارعها التي تنشر رائحة البحر والقرن الذهبي المقزز . لكن

Twitter: @ketab_n

مثل كل طلبة المدرسة الداخلية ، في نفس عمره لم يبلغ المستوى الذي يمكنه من الإمساك بمعنى الكلمات العثمانية . يتلجلج ، بالضبط نديم كي يتحصل على درجة رفيعة . لم يطلب منه دلالة القصيدة ولا مكانتها في الشعر العثماني ولا لماذا يعد حجر واحد من إسطنبول أفضل من مملكة الفرس . بعد ذاك ، بنفس الطريقة ، حفظ بالقلب : «ضبابة» لتوفيق فكرت دون أن يفهم شيئاً ، مكرراً بلا فائدة الأبيات من الصباح حتى المساء لكي ينطق الكلمات الغريبة بدقة . إذا فهم دلالة «ضبابة» ، سيسمعها بسهولة أمام التنين ، سيشعر أنه ، بالتأكيد ، قريب من هذه القصيدة . سيرى التشابهات بين إسطنبول التي يعرفها جيداً و«الفاتنة العجوز» ، «الأرمل التي لم تزل بكراً بعد ألف زواج» ، «الشوارع القديمة التي يتقاتل التراب فيها» . يقترح أن يكتب موضوعاً إنشائياً حوله ، وهو يعلم مسبقاً أن التنين سيرفض . «مادمتم تحفظون القصائد بالقلب ، تسمو روحكم» أجابه ، منعه من التفكير ، من فهم العالم عبر تجاربه الخاصة .

«ما دمتم تحفظون القصائد بالقلب ، تسمو روحكم» . «كفتة ، قطع الخبز!» . يبتسم . لا ، لا يستطيع أن يذهب إلى الحديقة ، إذ أن التنين مكلف بالحراسة هذا الأسبوع ، لا يستطيع أن يذهب إلى الساحة الكبيرة . حركاته محددة بهذه الساحة الداخلية وساحة الشرف . سينهض من على المقعد . مجتازاً العتمة المتلاحقة في أروقة الطابق الأرضي ، يرتقي الدرج إلى الطابق الأعلى . سيمضي أمام المقابض الضخمة لأبواب القاعات التي تتابع على جانبي الممر الرئيسي . يندهش من صمت الأمكنة المغمورة ، طوال الأسبوع ، بهرج التلاميذ ومرجهم ، وفي الوسط في هذه المدرسة الداخلية العتيقة الخالية اليوم ، حيث الممرات والحدائق الكبيرة والساحات ملأى بصخب آلاف التلاميذ منذ أن يرن الجرس ، سيمشي نحو المكتبة المحصورة بوحدة قاعات الطعام الداخلية والفصول الداخلية ، مستدعياً ، مع كل خطوة ، إحساس القلق والهجر .

❖ ❖ ❖

Twitter: @ketab_n

حينما ولج المكتبة ، لم ير أحداً سوى التلميذ المسئول . يحاذي خزانات الكتب المزججه ، يتجه نحو إحدى الطاولات الموجودة في آخرها . يجلس ، يضيء المصباح ويوجه نظره إلى الضوء . طويلاً ، يسمع الصمت . ألفى المسئول غارقاً في قراءة رواية ، بعد أن ترك المفتاح على الخزانة . الكتب ، هنا ، خلف الزجاج ، مصفوفة بعناية . من الخارج ، الكتب متشابهة . لكننا إذا قلبنا الأغلفة الموسومة بعلامة المؤسسة وقرأنا الأسطر الأولى ، نرتحل عبر طرق عدة نحو عوالم مختلفة كلياً . قرب نهاية هذا السبت ، وبعد الظهيرة ، يكفي مد اليد للهروب من السأم ، اجتياز حوائط المدرسة الداخلية العالية ، اكتشاف المدن الجديدة وذوات أخرى . يستطيع الكتاب أن يحوي العالم بأسره . بينما تجري اليد على العلامات السوداء المدونة على الصفحة البيضاء ، يتسع الفضاء وأبواب المساكن والمدن ، تنفتح الحيوات ، ويناضل الناس . الطرق ، الضوء الشاحب للمصباح الذي ينير الليل ، البحر ، طحالبه ، أسماكه ، سفنه ، الصمت الذي يلف انفتاح وردة ، عصفور يطير ، الذكريات ، الموضوعات ، العلب السحرية ، كل شيء ، كل شيء ، من الممكن وجوده في كتاب ، وجه المحتضر ، العجوز ، المولود ، المرأة المتعلقة بالحب ، نحيب الدامعين ، الضاحكين ، المحتاجين ، الشوارع ، الأشجار والفصول . . من الممكن أن تملأ كتاباً بالقراءة ، نعرف الحرائق ، الهدم ، النمو ، تحولات المدن ، ألوان الشمس والأغاني ، تباعد النجوم ، اتساع البحر ، ثمن الأرض ، برودة الليل ، حرارة الظهيرة ، أنواع الأشجار ، الزهور ، الجبال ، مجاري المياه ، وتحته أشكال الجذمور ، الحشرات ، المياه ، الصخور . في كتاب ، نستطيع أن نقابل الذوات في مولدهم ، في مماتهم ، في حبهم ، الحرب ، الأم ، وأيضاً الجميلات . الجميلات من النساء . يكفي أن تمد اليد وتتناول كتاباً كي تنسى . كي تتذكر وتنسى .

❖ ❖ ❖

يذكر أن أمه تقرأ القرآن فقط . تتصفحه دون أن تعيه . رأسها مغطاة بحجاب

Twitter: @ketab_n

أبيض . تجلس على صوفا الصالون ، وتفتحه . على أساس أن شفتيها تتحركان ، تنهمر الكلمات من فمها . خيط مياه يسيل ، صادماً الحصوات : «بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين . . .» .

اقرأ ، ليس فقط تمديداً للكون ، وإنما هجر موجة الصوت المعروف . الابتعاد عن الموضوعات ، العالم ، أن تنصهر في حرارة الجسد المألوف وأن تفنى فيه . في هذا العصر ، لا تعطي العلامات السوداء المدونة على الصفحة البيضاء أي معنى للأشياء . حضور الصوت القائل : «إنه أنا ، لا تخف! » ، يكفي لكي نفهم العالم ونعرف الأشكال والألوان . الأحرف لا توجد . بالضبط ، هناك دفق الصوت الهامس . شيء آخر يتمثل في الكلام أو تلاوة دعاء قبل أن تهمس لكي تطرد الشيطان . يتقدم الوجه الشاحب في الليل ، إلى غرفته ، قبل أن ينام يذكر اسمه . في هذا الزمن ، لا يوجد معنى ، بل أشكال وأصوات . وأيضاً ، العالم مكتشف باسمه .

وحيداً يجلس إلى طاولة مغطاة بمفرش أخضر في المكتبة . الضوء يصفع وجهه . يضيء شعره القصير ، جبهته العريضة ، وجنتيه العرقانتين . أعرفه . أعرف لماذا ينظر بشرود إلى الكتب في الخزانة المقابلة . إذ أنني قرأت بعض هذه الكتب . والسحر مبعثر . كان مضطرباً ، والتلميذ الذي صرف النظر عن خروجه الأسبوعين الفائتين ، يجلس في المكتبة ، لا يقرأ ، لا يفكر في شيء البتة . عيناه مثبتتان نحو ضوء المصباح والمجلدات . يحن إلى أمه ، إلى مسكنه . يعتقد أنه يسمع صفير الرياح ، هامساً ينزلق في الضوء الشاحب . في هذه اللحظة ، تكتسح العتمة نوافذ المكتبة . لقد هبط الليل ، في الخارج مساء خريفي لزج ، خانق .

❖ ❖ ❖

يدلف إلى ساحة الشرف ، عبر بوابة البناء الرئيسية ، آخذاً الممشى المبلط

Twitter: @ketab_n

حتى القضبان المطلية بالأخضر . هبط الليل فيما هو جالس في المكتبة . يتطلع إلى ساعته . العشاء بعد نصف ساعة . نصف ساعة طويلة ، تتمدد بلا نهاية . ماذا يفعل حالاً وكيف سيملأ هذه الفترة الطويلة ؟ يتردد . لا مكان يذهب إليه . غرفة المطالعة مغلقة . الرواق أيضاً . لا يستطيع أن يتجه إلى الساحة الكبيرة ولا إلى الحديقة . ومن الآن فصاعداً الحديقة الداخلية معتمة حتى يجلس فيها . خلف القضبان ، يرى السيارات تمرق في الشارع ، والأرصفة تعج بالمارة . يتزايد صخب المدينة شيئاً فشيئاً . ترتمي أضواء البنايات العالية المقابلة على الساحة . بقعة الألوان الممتزجة ، أضواء النيون الخضراء والحمراء والزرقاء للافتات الدعائية تضاء وتنطفئ ، وهي تغمر العينين . تناديه باي أوغلو من خلف القضبان . يتحسر على عدم تمكنه من الخروج هذا الأسبوع . رغب أن يقفز من أعلى السور ، أن يمتزج بالحشود ، أن يشرد في الشوارع التي ترشح ضوءاً . في المرة الأولى التي فتح باب الحديقة فيها وخرج إلى الشارع ، كانت أمه تصحبه . تمسكه بيدها . محاذيين حائط المقبرة ، مرا أمام المسجد تحت إضاءة المصباح الضعيفة ، ثم عرّجا إلى شارع آخر . آنذاك ، بينما كانا في زيارة كان يجهل عالم ما وراء الشوارع الغريبة حيث يضع قدميه للمرة الأولى . تختصر حياته في غرف المسكن والحديقة وظل شجر التوت ، كان سعيداً في أحضان هذا الاتساع . الآن ، بعد سنوات ، يمضي وقته محبوساً في المدرسة الداخلية هذه المرة ، محصوراً بين الحديقة الداخلية وقضبان ساحة الشرف . حينما سيسمع الجرس ، سيتجه إلى قاعة الطعام ... سيسمع زملاءه يحكون مغامراتهم يوم السبت وهم يأكلون الأرز بشيش الكباب الغارق في الدهن المتجمد . بعد ذاك ، متقدماً ساعة النوم ، سيجتاز ـ قبل الآخرين ـ الأروقة الطويلة الضيقة ، ثم يصعد إلى طابق عنبر النوم . في بطء سيفتح الباب ، يمشي إلى فراشه في الضوء الأزرق . سيرقد قبل أن يخلع ملابسه ويرتدي منامته ، مثل طفل مشاكس ، يتكوم تحت الأغطية الباردة .

❖ ❖ ❖

Twitter: @ketab_n

مثل أي طفل مشاكس ، أتكوم تحت الأغطية الباردة . أبداً ، لن أخرج . لن أمتزج بحشودك . لن أتسكع في شوارعك . لست قريبة ، بحرك ، حوائطك التي تنشر رائحة البول . نساؤك بعيدات ، نائيات ، منيعات ، مثل مساكنك ، غرفك . وجهي شاحب في زجاج واجهاتك . روما ، بيزنطة ، الإمبراطورية العثمانية ... لا أعرفها . تعلمت في بطء أن أحبك . في بادئ الأمر ، في الخفاء ومتأخراً صرّحت بهواي . تلزمني سنوات كي أستطيع أن أعجب وأرضى بجاذبيتك وجمالك . تعرفت إليك في بطء ، مع ذلك ، أنت دائماً حاضرة ، منذ سكن الميجاريون ضفافك ، وقد أطاعوا الإلهام وأقاموا في شبه جزيرة «قبالة العميان» ، وحتى مبكراً ، بدءاً من العصر الذي انفلت فيه المتوحشون ، الما قبل تاريخيين ، وأخذوا يشيدون أكواخاً من البوص حيث تسيل مياه أوروبا الرائعة ، إلى القرن الذهبي ، كنتِ دائماً موجودة .

اسمك ليجوس ، المياه التي تحيط بك من ثلاث نواح شفافة والأسماك تتلألأ فيها . الأشجار تدمدم في غاباتك . اسمك بيزنطة . على طرف شبه جزيرتك ، كنت مدينة صغيرة ، بأكروبولك وأغورتك وحماماتك وتماثيلك البرونزية ، وقد تركنا مرساك المحمي ، سفنك الشراعية المستديرة ترفع أشرعتها في الاتجاه المعاكس . كان سكانك من الحكماء والحرفيين . اسمك روما الجديدة . كنت مدينة رومانية مزهوة بأبوابك وآثارك الرخامية وعمود قسطنطين وهيودرومك الواسع حيث تشب الأحصنة ذات الشعر الغزير من الآن فصاعداً أمام جمع من السياح يتجمعون في ميدان سان مارك بفينيسيا . السفن المحملة بالمرمر والذهب على أرصفتك . كنت دائماً موجودة يا إسطنبول . تعيشين في فترة بلا ماض ولا مستقبل . إسمك قسطنطينية . كنت عاصمة الإمبراطورية العظمى ، بالصفوف الثلاثة لأسوارك ذات الكوى ، أبراجك ، راياتك ، أطفالك ، أديرتك وينابيعها الرائعة وأيقوناتها . اسمك قسطنطينية . قبة التاريخ الأولى التي تُرى من جبل الأوليمب ، تتوج كنيسة سانت صوفي حيث السماء المرصعة بالنجوم والبحر المضطرب ، الموزاييك ، الأعمدة الهائلة من حجر السماق

Twitter: @ketab_n

الأخضر ، الصلبان الذهبية ، الشمعدانات الفضية تلمع في الضوء الذي يشع من النوافذ المقوسة . يضيء الحوائط ، السفينة التي تحوي جميع سكان المدينة ، وحتى المتاحف التحت أرضية المعتمة التي أحصاها النُسّاك . منذ ذاك حتى اليوم لم يتغير شيء ، ولم تزل اللقالق تحلق وقت الهجرة في الأعالي . لم يكن هناك منارتك المدببة بعد ، ولكن لم تزل اللقالق تطير في اتجاه مكة ، السحب البنفسجية والنحاسية ، النوارس ، والبجعات موجودة هنا . ظلال برج جالاتا ترتمي على أسقف المنازل والأزقة حيث تتلاحق النزل الجنوية . أسراب الأسماك تنحرف من «بون ـ أوكسين» إلى « بروبنوتيد» . نسيمك العليل وريح شمالك لا مثيل لهما . كنتِ دائماً موجودة يا إسطنبول .

اسمك ميناء السعادة . صلوات المسلمين تصدح في سانت صوفي ، محمد الفاتح ، الذي يتهادى إسطنبوله عبر الأرض ، رفع وردة في يده . في مسجد أيوب ، ترتوي الحمامات من الينابيع الشعبية . اسمك مسجد الخليفة . كمثل الأحجار البيضاء مشذبة ، الصلب ينصهر في قدور معدنية كبيرة . أوان خزفية تزرق فيها الأعشاب وتنفتح أزهار التيوليب وأزهار أشجار الرمان تنضج على شعلة النيران . ترتسم الأحجام ، النسب ، المسنم ، قباب جامع السليمانية في مخيلة المعماري سنمان . تكبر حشود الألبان والبوسنيين واليونانيين واليهود والأرمن والأتراك والعرب والشركس والجورجيين بالنسبة للجنويين والفينيسيين ويكتسح محالك التجارية . العميان يعرفون طريقهم من روائح التوابل ، والسفن المحملة بالقمح تبحر نحو فينسيا وجنوا ومارسيليا .

اسمك الميناء العظيم . وقد تجنب الوزراء والباشوات وأمراء البحار وأمناء الخزانة العامة العمائم الكبيرة والقفاطين الفضفاضة ، نالوا حظوة عظيمة . قلبَ الانكشارية قدورهم ، وطلبوا المجد . أمراء الدم نفقوا في سجونك . على باب توبقابي ، يسيل ينبوع الجلادين بلا انقطاع . وبالمثل لا يتوقف البحر عن سكب مياهه أمام السراي . أنتِ فقط في مكانك . تتزلزل الأرض ، المساكن ، الجسور

Twitter: @ketab_n

والمدارس تقل ، لا شيء يبقى على حاله . بالكاد ينهار سقف السراي بحيث يبرز الموازييك البيزنطي . الطاعون يطوف في حواريك . على البوسفور ، قصور يالي ، المصايف الأميرية ، المساكن الخشبية تشتعل مطقطقة . لكن كل شيء أعيد بناءه . احتل المواليد الجدد محل الجثث المحترقة وقت الأوبئة ، وكذا محل ضحايا الزلازل والحرائق والحروب . هكذا ، تمضي السنوات والقرون ، أنت فقط مستقرة لأنك دائماً موجودة . عند ملتقى البحار الثلاثة ، تحصلت على أسماء ليجوس ، بيزنطة ، اسمك ميناء السعادة ، منزل الخليفة ، الميناء العظيم ، وإسطنبول ، يعني المدينة ، نعم ، المدينة .

هذا منذ سنوات طويلة . . . كم من سنوات مرت ، ولم أتأمل بحرك وأعاشر سكانك وأتسكع في شوارعك وطرقك ! الآن ، بعيد عنك ، معك في باريس ، في شارع فيجييه . حالاً ، رأيت ملصقاً في المترو . سانت صوفي حلّت أشرعتها تحت هبة رياحها . أمواج تلمع على ملصق آخر . إنك تلمعين يا اسطنبول في الشمس ببحرك الأزرق ، سفنك البيضاء ، زوارقك ، مراكبك وحيدة الصاري ، صنادلك ، جرادك البحري ، سرطانك وأسماكك المبرقشة . سانت صوفي ، الأوتيل ، البوسفور وأسماكه بألفي فرنك وبعض الوقت . أنا وحيد لأنني لا أستطيع أن أصل إليك . لا أستطيع أن أزهر بحرك ، ولا الدوامات المضطربة للقرن الذهبي ، لا أستطيع أن أربت على أبراجك وقبابك ومناراتك . كم من سنوات طويلة لم أعد أجلس فيها إلى مقاهيك المقامة على ضفة البحر ، ولا ألمس بوجهي أسوارك وحوائطك السوداء ولا أتسلق روابيك وأبراجك ! كم من سنوات طويلة مرت لم أجلس فيها تحت ظل أشجار صنوبرك ! والآن شارع فيجيبه ، في هذه الغرفة المنعزلة المطلة على ساحة فندق دوسونس ، أفكر فيك ، والجبهة مائلة على أوراق بيضاء . تدريجياً ، أخذت تنكسرين على ضوء المصباح . هي ذي قبابك ومناراتك ! هي ذي أزقتك المتعرجة وشوارعك العريضة! هو ذا مدخل البوسفور ، مياه القرن الذهبي ! والصمت ، صمت المقابر والخزانات والساحة الداخلية للمدرسة . والضوء ! الضوء الرمادي الذي يرشح

Twitter: @ketab_n

السماء المحمية . الشمس تقبل نوافذ سكوتاري ، وشعلة الشمعة تتذبذب أمام براءة طفل . وميض شيخوخة المهجع الأزرق ، وحدتي! نعم ، وحدتي! هذا الفقدان الواخز الذي يعترينى بعيداً عنك ، فيك : «لا يُنسى شيئان إلا بالموت : وجه أمنا ووجه مدينتنا» ، كما قال شاعر إسطنبولي كبير لمن وقع له هجران الانفصال والحنين . من بعيد ، أحس وجهك يا إسطنبول المدور والشاحب ، وجنتيك البارزتين ، حالما ألمسك تحرقني أصابعي . تولدين ثانية من أرمدتي ، يا إسطنبول!

أحسَ بالبرد لما خرج إلى السطح الخلفي . لم يطلع النهار بعد . تتلألأ بعض النجوم في السماء . يرفع ياقة سترته ، يشق طريقه بين الطاولات المتتابعة ، المقاعد الطويلة الخالية ، ويتجه نحو هدير المياه عند أقصى السفينة . مستنداً إلى الحاجز ، يتطلع إلى البحر . يتمدد الفراغ المعتم بعد المكان الذي يمتزج الزبد فيه بالليل . المياه بيضاء في الضوء المنكسر الذي يتسلل من كوة قمرة السطح الأسفل . نقول أن البحر ، أو بالأحرى هذه الحياة المزبدة ليست أكبر من كف اليد ، ترك الضوء ينساب أمامه . متسمراً في مؤخرة السفينة ، يحف في ثورة دائمة ، يتزايد فوران غريب عبر دوائر كي يتلاشى في العتمات . أليس البحر هو هذه الدوامة البيضاء والخضراء ؟ في رقاده ، بالقطار ، الفضاء العجيب الذي واجهه عالم بلا حدود يتسع ، فهل سيختزل إلى هذه المساحة الضئيلة ؟

❖ ❖ ❖

ينطلق القطار على امتداد مزارع أزهار عباد الشمس . جالساً قبالة فَلاَّحة عجوز ، ينظر إلى الخارج . أشجار نائية ، مساكن تمضي خلف النافذة . تلقي الشمس أشعتها على أزهار عباد الشمس ، تضيء الإكليل البني وتويجاتها الذهبية . للأرض رائحة المطر . كلما مضى القطار ، نافثاً دخاناً أزرق من مدخنته ، يشعر أن عجلاته تدور عليه بأقصى سرعة ـ على نفس الإيقاع ، في رأسه ، الجبال البنفسجية ، السماء ، المزارع ، قبعة فلاح على حماره ، يجوب

Twitter: @ketab_n

طريقاً متربة . بداية ، هناك غابات الصنوبر ، سماء نهارية بلا سحب زرقاء . . . يحاذي القطار سيلاً يسقط عند سفح الجبال . يمرق أمام أشجار الحور ، والفلفل الحلو الذي يجف على الحوائط . أحياناً ، تسكن العتمة ، وتحت ضوء المقصورة الضعيف ، ينعكس وجهه في المرآة . يتبين ، بصورة ضعيفة ، عينيه ، فمه ، لكنه يعرف وجهه . هذه الجبهة العريضة وهاتان الوجنتان موجودة . ينتظر أن يخرج القطار من النفق . تمضي الدقائق والساعات والنفق لا ينتهي البتة . وجه مدور وشاحب ، بملامح غامضة ، لا يميز العينين ، الفم ، ولكن الجبهة عريضة والوجنتين بارزتان . يعرف وجه أمه في ضوء المقصورة الضعيف . كانا قريبين! وجنة قبالة وجنة مثل الصورة المعلقة أعلى صوان الصالون . أمه شابة في هذه الصورة ، شعرها طويل . لكن في نافذة القطار ، لم ير سوى وجهها ، لا شعر لها . كما في هذه الصورة ، تبتسم ، فرحة . وجنة قبالة وجنة . لكن رسمة فمها غامضة ، وبسمتها غير مرئية . هل تبكي؟ أهي المعاناة ، اليأس الذي غَضَّنَ شفتيها؟ كانت المقصورة مضاءة بصورة سيئة . فضلا عن ذلك ، لا يكف المصباح المعلق في السقف عن التذبذب . فيما يمضي القطار ، تتداخل الظلال ، والوجه الممتلئ للفلاحة العجوز الجالسة قبالته يتطابق مع وجه أمه . أخيراً ، خرج القطار من النفق ، السماء زرقاء ، والحواجز الصخرية تتبدى خلف النوافذ . ثم من جديد العتمة . يرى ، في العتمة ، وجهه وأمه في الصورة .

بداية ، هناك غابات الصنوبر ، سماء نهارية بلا سحب ، زرقاء . المساكن متقاربة ، وأشجار الحور فقدت أوراقها . ثم انتهت الأنفاق ، وانطلق القطار عبر حقول أزهار عباد الشمس . المساكن تتشتت ، والسماء تكبر . وبما أن الشمس سطعت ، فإن رؤية السفوح تعرض من النافذة . تدور العجلات سريعة . ينطلق القطار في الأراضي المنبسطة . تتتابع الحقول أمام عينيّ العجوز الجالسة قبالته . تميل أوراق زهور عباد الشمس . الأراضي منبسطة ، رطبة . يقود مزارع جراره . شاحنات تنقل عمال المياومة . يتذكر أنه غفا برهة .

Twitter: @ketab_n

أثار منظر الرحلة رغبته في الرقود ، طوال الليل ، في فراشه . انتظر الفجر دون أن يغلق عينيه . نهض مبكراً و ـ مرتدياً ملابسه ـ صعد إلى الطابق الأعلى حيث وجد أمه تعبر صحن الدار ، في الضوء الساطع . بعد أن أخرجت الملاءات والملابس الشتوية لابنها ، تكويها ، وتطويها بعناية ثم ترتبها في الحقيبة . يداها تشمان الصابون والخزامي . كانت أبواب الغرف مفتوحة . الأشياء تتبدى بلا تمييز في الضوء الساطع . صحن الدار ، كما العادة ، خال . ترتدي أمه قميص نوم أزرق . شعرها ينسدل على كتفيها ، وجهها يأخذ مسحة شاحبة . كأنها تشعر بالبرد . تطلعا إلى بعضهما طويلاً ، وهما ينتظران آذان الفجر . لا ضجة في المسكن . بعد فترة قصيرة ، قالت أمه أن الوقت لم يزل مبكراً ، وإنه يستطيع أن يذهب لكي ينام قليلاً ، يتذكر أنه هبط لكي يتمدد على الفراش بكامل ملابسه . الغرفة غارقة في برودة الفجر . كأنه لا يحب أن يمضي الشتاء هنا ، والمدفأة غير موجودة . في لحظة نظر إلى الحوائط وحاول أن ينصت ـ في هذا الوقت الخريفي ـ إلى طقطقة المسكن القديم الذي تسرب خمسة عشر عاماً من عمره بين أرجائه . ساد الصمت . لا يسمع سوى صوت المكواة على الملابس المغسولة . حلم أن أمه الهزيلة لا تطقطق الألواح الخشبية ، ثم نام . يتذكر أنه غفا .

❖ ❖ ❖

حينما استيقظ قبالة الفلاحة ذات الوجه الممتلئ ، ورأى عبر النافذة وجفونه المفتوحة لوناً أزرق خلاباً ، فضاء واسعاً ، ينبسط أمامه . مبلبلاً أمام رؤية البحر للمرة الأولى ، نسى كل شيء ، حتى رتابة منظر حقول أزهار عباد الشمس وعتمة الأنفاق الطويلة على امتداد الرحلة . الآن ، إنه في جغرافيا أخرى على ضفة حياة جديدة . أخيراً ، رأى البحر ، متحرراً من الثقل القاري للطرق المتربة والجبال والسهول التي تدور في رأسه ، مع عجلات القطار الذي يقربه ، في كل لحظة ، من إسطنبول . يحاذي القطار الضفة التي تنيرها شمس الخريف و ـ نافثاً

Twitter: @ketab_n

دخاناً أزرق من مدخنته ـ يتجه به إلى الباخرة التي تنتظر على الرصيف ، نحو رحلة أخرى ، نحو عالم آخر . هكذا ، بالكاد خرج من نومه ، تحول عالمه بفضل البحر الذي باغته بدخول حياته وخنق ذاته ، في بادئ الأمر مشوشاً ، ثم مندهشاً . لا يشبه الأزرق الذي يراه في الصور أو الرسوم في الكتب أو الفكرة الغامضة التي حفرتها الأساطير التي تقصها أمه . هذا ، حقاً . إحساس مؤثر ، كأن السماء تبتعد ، كأن المسافات تكبر . كل شيء تغير وكبر بطريقة مدهشة ، وقد اكتسب أبعاداً جديدة . البحر أعجوبة .

❖ ❖ ❖

مع ذلك الآن ، وهو يمضي ليلة على فراش صغير في حرارة المقصورة ، بينما يرنو إلى البحر ، مستنداً إلى درابزين السطح الخلفي ، رأى فضاء أبيض ليس أكبر من كف اليد . الدوامة البيضاء والصخب الأخضر يتسعان بدوائر قبل أن يتلاشى . البحر ، هو ذا الهدير . وأيضاً الخلاء المعتم الذي يبدأ هنا حيث ينصهر الزبد في الليل . ولكن مع نهوض النهار ، ستبتعد أسماء وستطول المسافات ، وسترتدي الطبيعة ألوانها ، وسيجد البحر كأنه يراه لأول مرة في اتساع زرقته .

في الأسفل ، يومض ضوء . يرتمي على الحياة الخضراء . ثم ضوء آخر ، وهكذا . المياه التي تسيل على جانبي الباخرة تتلألأ . إذن ، إنه النهار . سوف يستيقظ المسافرون واحداً إثر الآخر . يتذكر الجو الخانق . في المقصورة ، وضوء المصباح الشاحب المعلق في السقف الواطئ . طوال الليل ، يعرق على الفراش الصغير ، دون أن يتمكن من النوم . ومع ذلك ، كان متعباً . حل الإحساس باكتشاف البحر محل الخلاء المبهم ، وألم الذات لبعده ، أول مرة في حياته ، عن ذويه . وجه أمه المدور والشاحب يلازمه . لم تصحبه إلى المحطة ، وإنما إلى باب الحديقة ساكبة المياه من إبريق على قدميه . لم يزل يسمع ارتطام المياه بالأرض . ودعس الأحصنة التي تلهث في الصباح البارد . بينما تبتعد الفيكر (عربة جياد) ، لا يعرف إن كان سيرى أمه للمرة الأخيرة . لكن توعك مزاجه

Twitter: @ketab_n

سد قلبه . في الوقت الحاضر بالنظر إلى البحر من أعلى الدرابزين ، لا يعرف أنه لن يرى أمه أبداً ، وأن وجهها المدور والشاحب الذي ينحني عليه كل مساء قبل أن ينام لن يراه إلا في الصور . كم أنه تعب ! حَفرَ الأرقُ عينيه وصَفَّر ملامحه . بالضبط ، تخيفه العتمة التي تبدأ بعد الفوران الأبيض والأخضر . مع ذلك ، سوف تطلع الشمس حالاً . كل شيء سينبثق في الضوء الساطع ، يتيقظ في نفس هذه الساعة ، يكون في فراشه ، في مسكنه . أمه تكوي ملابسه في صحن الدار . بعد ذلك تمنت له رحلة طيبة أمام باب الحديقة و ـ كما العادة ـ قبّلته على الجبهة ، يتحاضنان . هو ذا يرحل قطعياً : «سأرحل إلى الأبد» .

❖ ❖ ❖

جالساً في الفيكر إلى جانب والده ، يردد بلا توقف : «سأرحل إلى الأبد!» يمضون في الشوارع الخالية والطرق المعتمة . ثمة أضواء تلمع في الشوارع . بخار أزرق ينبجس عن مناخير الجوادين . من وقت إلى آخر ، يضرب الحوذي سوطه في الهواء ، تتردد الضجة في شوارع الضيعة الحالية . «سأرحل إلى الأبد! إلى الأبد!» . كف عن الصياح باتجاه نوافذ المساكن الخشبية حيث تنعكس الظلال على الطريق المعبدة الموحلة . يريد أن يجهر بألمه إلى الأراضي البور التي لعب بكرياته وطياراته الورقية عليها . «سأرحل ، سأرحل! » . يعرجون إلى الشارع الكبير . المصارف والمكاتب مغلقة . يجتازون مخبزاً مضاء . يشم رائحة الخبز الطازج . في الفيكر ، هذه المرة ، لم يضرب الحوذي سوطه في الهواء ، لكنه نزل به على جسدي الحيوانين . «سأرحل ، يصحباني ، يصحباااني! » . يريد أن يعترض ، يصرخ أمام حوائط المدرسة البيضاء التي لن يراها ولن يرى أبداً قاعاتها ، أمام المقاعد التي لن يستطع الجلوس إليها ، وهذا لن يكون سوى لمرة واحدة . «علي ، عمر ، رشيد السوفي! هذه السنة ، ستبدأون الدراسة دوني . لن أكون معكم حينما تلعبون الكرة في الساحة . أنا ، سأذهب إلى إسطنبول ، إلى إسطنبوول! هل تسمعون صوتي؟ هل تسمعون صوتي؟» . كان الجوادان

Twitter: @ketab_n

منهكين لما بلغا قمة المنحدر . ينخران . يضرب الحوذي الهواء ثانية بسوطه . يشعر بالسيور تخترق جلده . يتقلص جسده من الألم . يجب أن يتكور إلى جانب والده وينتحب بين ذراعي هذا الرجل الذي يجلس قربه على حافة المقعد ، مستقيماً في معطفه المصنوع من وبر الجمل ، ويتحدث إلى الحوذي . تتطاير الشرارات من سيجارته . يرجع إلى الوراء ، ثم ينزوي إلى المقعد .

«سأرحل ، يكرر في نفسه ، سأرحل إلى الأبد! » .

استعادت الفيكر سرعتها . هبطوا المنحدر ، الآن ، يذكر البرد المسبب للشلل في غرفته ، التي لم تزود بعد بمدفأة ، وقميص نوم أمه الأزرق ، التي تكوي ملابسه في ضوء صحن الدار الساطع . يتذكر ثانية سيارة المطافئ الحمراء ، الباخرة التي كان يعومها في حوض الحديقة ، منذ سنوات . أحضر والده اللعبتين من إسطنبول ، بعد عودته من رحلة . بالنسبة له ، إسطنبول محل لعب يعرض جميع أنواع العجائب والمحركات والطوافات والطائرات ذات الأنوار الوامضة . تثور مياه الحوض الخضراء الضاربة إلى الأزرق في ذاكرته . يسمع الرياح تحف في شجرة التوت قرب المضخة . حلم مضطرب ، رؤية خضراء ، صفراء تضاء و تنطفيء في داخله بفضول ويري نهاراً أغسطسياً ، الذراعين الرياضيين للجارة التي ترفع سطل المياه من المضخة ، صدرها البارز من الصدار حيث يسيل العرق على نصفها الأعلى ، حينما ـ وقد تمدد في ظل شجرة التوت ـ أنشأ يقرأ . يعتقد أنه يسمع طنين الذباب ، الصوت الأبح لأمه وهي تؤدي صلاة الظهر . ينكمش على نفسه ، على مقعد الفيكر . يؤوب للمرة الأخيرة إلى مسكن طفولته ، إلى المدينة الصغيرة التي بدأ دراساته بها ولعب في أراضيها البور بالطائرة الورقية ، يريد أن يصرخ : «سأرحل إلى الأبد! إلى الأبد!» ، لكننا لا نسمع سوى أنفاس الجوادين وصوت والده المعرض لنزلة برد الذي يتحدث مع الحوذي .

حينما بلغوا المحطة ، لم يلحظ والده دمعة جافة على وجنته . صمت كلاهما

Twitter: @ketab_n

حتى قدوم القطار . فقط ، ربت والده على رأسه بيديه المعبقتين برائحة التبغ . يسعل في الصباح المبكر . وفي هذه اللحظة ، تمنى أن يموت ، ثم ندم . وبينما يشير بيده من نافذة المقصورة إلى هذا الرجل الذي يرتدي معطفاً من وبر الجمل ، يقول في الواقع وداعاً إلى الأيام التي خلفها وراءه ، إلى رفاق لعبه ، إلى طفولته التي تبتعد شيئاً فشيئاً . واقفاً على المحطة ، يتضاءل إلى نقطة سوداء ، في البعيد . بالنظر عبر النافذة ، تضاء الحقول وتنتصب المنحدرات الصخرية ، لا يعرف إن كان سيعود ثانية إلى الضيعة التي ولد فيها . لكنه تمنى أن يشعر بحرارة أمه ، أن يرى وجهها المدور والشاحب الذي يمحي المساكن الخشبية الصغيرة والأزقة الوعرة للمدينة الصغيرة يعذبه كجرح متعذر شفاؤه .

❖ ❖ ❖

والآن ، في الفجر ، تلك أول رحلة في حياته . متأملاً البحر من أعلى الدرابزين ، لا يشك أنه لن يرى أمه ثانية ، وأنها لن تحيا ثانية إلا في الصور ، هي من تحصّنه وترقيه كل مساء ، بوجهها المدور والشاحب ، بعد أن تتلو له ابتهالاتها وتهمس في الضوء الشاحب ، يجهل أيضاً الشراك التي بسطتها المدينة لكي تبتلعه . أنا فقط من يعرف مكانها . أعرف ما سيجري لها . إذ أني تذوقت لذتها وعشت جميع تجاربها . أحلامه أحلامي . ولدت في الضيعة التي ولد فيها . رأيت جميع المدن التي رآها وقرأت الكتب التي قرأها . وفي هذه اللحظة ، في باريس ، فيما أكتب هذه الأسطر بشارع فيجيبه ، أجده قريباً مني . مع ذلك ، أعوام تفصلنا . هناك مدن ، نوم غريب عني . في الخارج ، يبدأ الصباح الضبابي . الوقت رمادي . أتطلع إلى ساحة فندق دوسونس . أبوابه غير مفتوحة دائماً . لا أحد في المكتبة . إذن ، أكتب تاريخك . إنها المرة الأولى التي لا ينام فيها في فراشه . بعد ليلة بيضاء أمضاها على الفراش الصغير الأسفل في حرارة المقصورة ، يتأمل ـ في الحاضر ـ البحر من أعلى الدرابزين ، يشعر بكونه متعباً وتائهاً ، ينتظر أن تبتعد العتمات وأن يبسط البحر أزرقه أمامي . لكن أي وميض

Twitter: @ketab_n

لا يبرق ، وظل البحر غير مرئي . والليل ، بغرابة ، يأبى أن ينتهي .

❖ ❖ ❖

أول النهار ، أطلقت الباخرة صافرتها . لا نرى سوى البحر . المياه الخضراء ضاربة إلى الرمادي ، فالأبيض ، ضبابة سميكة تغطي كل شيء . تمتزج الصافرة بأخرى . في لحظة لا نسمع سواها . تكتسح الضبابة تدريجياً السطح الخلفي . تغمر الطاولات والمقاعد الطويلة ، في ضوء النهار الكئيب ، لا نرى مساحة متر أمامنا . يفكر في الرجوع إلى مقصورته . لكنه عدل عنها . عبر درج السطح الخلفي ، يصعد إلى الكوثل ، حيث توجد قوارب النجاة . تحسساً ، ينسل إلى الضوء الأحمر الذي يلمع كعينيّ قطة ، ناحية المعبر الضيق . يرغب في رؤية النوارس . تقترب من درابزين السطح الخلفي ، ثم تغطس في المياه صائحة لكي تلتقط بقايا الغذاء الذي ألقاه المسافرون قبلاً . ظلت تلاحق السفينة فترة طويلة ، وقد سطرت أجنحتها البيضاء دوائر في الهواء . ثم ، مع هبوط الليل ، بينما تغمر العتمة كل شيء ، تختفي النوارس مع اختفاء البحر . والآن ، غطس العالم تحت ضبابة سميكة . العتمات مسته دون أن تتضح الألوان . البحر غير موجود . الأزرق اللانهائي الذي رآه للمرة الأولى من نافذة القطار ، هذا الإحساس بالدوار يتوارى . تنزلق الباخرة على المياه المرصدة ، مطلقة صافرتها . لا نرى شيئاً ، حتى باخرة أخرى . لا توجد إلا صافرات تدوي لأوركسترا لا مرئية .

يمضي الوقت نوعاً ما . الآن ، يشعر بالبرد . متكئاً إلى قارب إنقاذ ، يتطلع إلى البحر . تدريجياً ، تغير المياه من ألوانها ، مارة من الأبيض إلى الرمادي ، و ـ بدرجات ـ إلى الأزرق . يرى الضبابة تنقشع . تتبدى صفرة شاحبة على الأمواج . يحس أن الباخرة استعادت سرعتها ، وقد خف طنين الآلات . يفتنه الضوء الأحمر القريب إلى حد كبير في الوقت الحاضر . فجأة ، في لحظة ، تتراءى كتلة معتمة أمامه . مثل ضبابة تتشتت ، تقترب ثم تحتل الأفق كله ، يراها كحيوان ينبثق من البحر ، ويثير خوفه . يسد مسخ بحري ضخم طريق

Twitter: @ketab_n

الباخرة . مغلقاً عينيه ، رزح تحت تعب رقاد الصباح . لا يقوى على المقاومة . يسترخي جسده الدافئ ، يرفض أن يرى المسخ ، مع أنه مقتنع في أعماقه بخياليته . شعر برطوبة القارب تسري في جسده . تلمس يد لطيفة كتفه . يرن صوت مألوف لديه ، يصرخ :

«نيلوفر! نيلوفر! » . الصوت ، يأتي من بعيد ، من بعيد . مصمماً ، ملحاً : «نيلوفر! أنا ذا! اجتزت البحار الشاسعة ذات الأمواج الثائرة لكي أجدك . اقتربت من تنين البحار السبعة وقتلت الغيلان . أنا ذا! دعيني أدخل! ضميني إلى صدرك! نيلوفر! نيلوفر! » .

إذا فتح عينيه ، سيلقى اسطنبول قبالته . سوف يكون مبهوراً من لمعان التنين الواقف أمامه وسط البحر ، من وميض الشرارات التي تنفلت من فمه . سيتأمل القباب المعدنية ، المآذن الطويلة الرشيقة المغروسة في ظهر المسخ ، الأسوار البيضاء التي تبرز من الضبابة . كشف الحيوان له عن فمه الكبير ذي الأسنان القاطعة المعوجة . غير أنه ترك الجفون مغلقة . يستند إلى قارب الإنقاذ ، وهو مطمئن إلى موجة الصوت المتوسل .

❖ ❖ ❖

«نيلوفر! نيلوفر! القي بالمفاتيح ، كي أستطيع الصعود إلى أعلى ، إليك . الهوى يعانقني ، والحنين إليك يضنيني ، يا نيلوفر . نيلوفر ، يا حبيبتي! القي بحزمة المفاتيح ، المفاتيح ، المفاتيييح!» .

❖ ❖ ❖

إنقشعت الضبابة . إسطنبول أمامه ، في هذه اللحظة . إذا فتح عينيه ، سيرى المنارات الرفيعة للمسجد الأزرق ، الحوائط الرمادية لسانت صوفي ، قبتها الضخمة ، صورة برج بيازيت الظلية الدقيقة ، التي تشق السماء . حدائق وأكشاك قصر توبقابي ، جسور القرن الذهبي ، الشوارع الكبيرة التي تنطلق السيارات فيها ، تتكشف ملامحها له . لاحظ البواخر الراسية في المرفأ ،

Twitter: @ketab_n

البنايات الكبيرة الصاخبة . يصيبه بالذهول تكدس البنايات المتلاصقة ، تلاحق النوافذ ، حركة الحشود التي تملأ الشوارع . في اللحظة التي قام المسخ فيها ، بطرف لسانه القرمزي ، بإمساكه من جسده ووضعه في فمه المخيف ، فهم أنه سيذهب إلى مكان لن يخرج منه أبداً . لكنه ترك الجفون مغلقة . ينتظر أن تعطيه نيلوفر ـ مدلية شعرها الحريري من أعلى البرج ـ مفاتيح المدينة مع ذلك لا تمتلك نيلوفر هذا الشعر الذي كانت تمشطه بقدر من العناية . يجهل أن ملك القراصنة ، في ليلة أراد أن يرى ابنته لكي يتأمل جمالها ، وصل إلى الجزيرة بعد رحيل القمر ، وسمع صوت شاب يصيح : «نيلوفر ، يا حبيبتي! حلّي شعرك الساحر!» واختبأ خلف الصخور .

سامعاً صوتاً يصيح : « نيلوفر ، يا حبيبتي! حلّي شعرك الساحر! » . إذن كان ملك القراصنة مختبئاً خلف الصخور . ماذا يرى؟ يتسلق الحصن متشبثاً بشعر نيلوفر ، أليس هو الشاب الذي اعتقد بموته غرقاً؟ أصابته لوثة . وجهه ، وجه السكير الأكول ، يتضرج بحمرة شديدة . انبجس الغضب من عينه الوحيدة . لكن الشاب بلغ الأعلى بشعر نيلوفر ، وهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً . في الليلة التالية ، قدم إلى الجزيرة قبل عاشق ابنته . في مخبأه خلف الصخور ، نادى في اتجاه الحصن : «نيلوفر ، يا حبيبتي! حلي شعرك الساحر! » . معتقدة وجود عاشقها ، دلت نيلوفر ضفائرها الطويلة . حينئذ ، امتشق ملك القراصنة حسامه وقطع شعر ابنته . ثم ، يختفي هارباً إلى الأبد .

أصاب نيلوفر اليأس من فكرة أن حبيبها لن يحبها أبداً وأنه ، في الحقيقة ، قطع شعرها قبل أن يهرب ، خارة في غرفة الحصن العتيقة ، تستعطف الرب أن يميتها . يرفض القادر أن يهلك نيلوفر الجميلة ، ويحولها إلى أنثى عنكبوت . تهبط على طول الحوائط العالية ، ثم تذوب في العتمات الليلية . «نيلوفر ، يا حبيبتي! حلّي شعرك الساحر!» يجهل أن نيلوفر ، متحولة إلى عنكبوت ، تود أن تثأر من حبيبها الذي كما تعتقد هجرها في الحصن بعد أن قطع شعرها . كيف

Twitter: @ketab_n

سيعرف أن أنثى العنكبوت التي تنسج نسيجها في الأركان الرطبة هي نيلوفر ، وأنها تستدرج الذكور إلى شراك خيوطها الطويلة وتقتلهم؟ يعتقد أن نيلوفر سجينه الحصن ، دائماً . ينتظر أن تخرج من الشرفة كي تهديه مفاتيح المدينة . ليس لديه أي فكرة عن الانقلابات في القسطنطينية ولا المعارك العديدة التي يجب أن يدرسها لكي يخضع التنين . لم يقرأ الوقائع البيزنطية والعثمانية . ولم يقرأ «عشاق بيزنطة» لميكا والتاري (روائي فنلندي) بالضبط إنه على اتصال بحصار القسطنطينية على مدار التاريخ ، وفتحها النهائي على يد محمد الثاني . يجهل أنه في بداية الحصار ، أن المدفع الرهيب الذي صبه أوربان ، كان يشده خمسون زوجاً من الثيران وأربعمائة مدفعي حوتي بوابة قاليجاريا ، ويقصف وهو يثير دخاناً كثيفاً على من يقفون حوله ، وبعد أكثر من طلقة انفتحت ثغرات عديدة في الأسوار . لم يشعر بالليالي اليائسة لمحمد الثاني في خيمته الإمبراطورية ، في سهل داوود باشا ، ولا بكوابيسه نعم ، كوابيسه ، عناد زاجانوس باشا الذي سمع بتطويل الحصار ، بفيضان السهام والقنابل والأحجار التي تنطرح على الجيش ، جثث الانكشارية المكدسة في الخنادق ، تحت المتاريس . كيف عرف عن السلاسل الطويلة التي تزن أطناناً التي مدها المحاصرون ، على طول جالاتا ، بين ضفتي القرن الذهبي كي يدفعوا الأسطول العثماني ، وعن دعم الجنويين والفينيسيين لبيزنطة ، وعن النار اليونانية السحرية التي تشعل حتى الأمواج! يعرف أن اسطنبول استولى محمد الفاتح عليها في عام 1453 ، وأن هذا التاريخ يرسم نهاية عصر وبداية آخر ، وهو ذا كل شيء . مع الوقت ، تعلم أننا لم نكسب أي حرب ، وأنه يجب توافر ، قبل أي شيء ، الصبر والعناد لأجل حصار طويل لن ينتهي ، أياً كانت مدته ، إلا بالانتصار . آنئذ ، في الباخرة التي تقله نحو شوارع اسطنبول الخانقة ، «نحو وحدته ذات مذاق البطيخ المر» ، يتخيل نيلوفر ، دون أن يعرف الفرق القائم بين وصوله إلى المدينة وتقلده ، بعد ذاك ، وظيفة معلّم .

يضع آماله في الشعر الطويل الذي لم تعد نيلوفر تتباهى به . بفضل الصورة

Twitter: @ketab_n

الباهتة في كتاب الجغرافيا الوجيز ، عرف سانت صوفي ، قصر توبقاي ، المسجد الأزرق ومسجد السليمانية ، أبراج بيازيد و جالاتا . لا يشك في وجود شارع المواخير في حي البنايات الواطئة ، الذي يتدهور عمودياً ، كأنها آبار بلا قرار . بالنسبة لقصر يالي في البوسفور ، سمع عنه فقط من معلميه . لكن ، في هذه اللحظة ، يسخر من نتف معرفتهم عن اسطنبول . يفكر في ضيعته ، في غرف المسكن الخشبي ذي الطابق الواحد . . يشعر بحيرته . الضوء الساطع لصحن الدار الخالي مضاء دوماً . فيما تدخل الباخرة إلى المرفأ الذي تضيئه الشمس الصباحية ، لا يعرف أن إسطنبول ، التي تنبسط على الضفتين ، ستضمه كأنها تخنقه . متكئاً على قارب إنقاذ ، يحلم بوجه أمه المدور والشاحب .

❖ ❖ ❖

دائماً ، يلاحقه هذا الوجه . في الليل بعنبر النوم ، في النهار ، في أروقة المدرسة الضيقة المعتمة ، تحت شجرة الصبار في الحديقة ، يلازمه بلا انقطاع ، إنه موجود في الكتب التي يقرأها والشوارع التي يشرد فيها . بعد سنوات ، بعيداً عن إسطنبول واللغة الأمومية ، تهيأ له أنه فقده . ذات صباح ، استيقظ في مسكنه بشارع فيجييه ومشى في شوارع جزيرة سان لوي الخالية . لم يكن مندهشاً من صمت هذه الجزيرة الصغيرة ، المجاورة للمدينة ، وسط باريس . يعرف أن قلب المدينة يدق في المدينة ، حينما كانت المدينة في العهد اللويتسي بعشرين ألف ساكن وأنها منذ العصور الما قبل تاريخية حيث كان الناس يعيشون في أكبر الجزر كانت مسرح حوادث عديدة . لكي يقرأ التاريخ قراءة سريعة منذ المرحلة الرومانية إلى العصر الحديث ، ويدرك الثورة الفرنسية ، يكفي أن ينظر إلى التمثال الأبيض لسانت جنفييف ، حامية المدينة وقت غزو البرابرة ، الشبيه بمنارة منتصبة نحو السماء ، حوائط كنيسة نوتر دام ، مزازيبها ، الأبراج الدائرية وغرف الحرس . في العمق ، يشبه تاريخ باريس ، تاريخ الحاضرة التي تقع وسط المدينة . إنها من وضعتها في العالم وأنشأت باريس . لكن خلال عصور ،

Twitter: @ketab_n

أصبحت جزيرة سان لوي مهجورة ، وقد ربطت الضفتين بخمسة جسور . لا أحد يسكنها . بينما الحاضرة تتوسط باريس في بيئتها ، وهي منسية ، نجد أنها مستسلمة لمصيرها . تغطيها الأعشاب البرية والأدغال . يوعدها بائعو سان بول مستودعهم . تجفف الغسالات ملابسهن عليها ، ويتواعد العشاق في أنحائها . يمضي أمام الفنادق الراجعة إلى القرن السابع عشر ، الساحات غارقة في الضباب . خلف نوافذ الصالون العالية ، الثرايا منطفئة . آخذاً شارع بويتييه ، يلقى نفسه أمام رصيف آنجو . تصفع طلاوة النهر وجهه . قبة سان بول ، التي تفكك الضبابة الصباحية ، تجذب نظره . هذه القبة ، أول قبة بنيت في باريس ، تذكره بأخرى ، قبة سانت صوفي التي تكبرها . يحلم بالصباح الضبابي لأول لقاء له باسطنبول . وجه مدور شاحب ، يعتقد أن نسيه ، يترجرج في ذاكرته . يعتقد أنه يرى ثانية المسخ البحري الذي ينفث نيراناً من فمه . هذه المرة ، لا يهابه . يمشي نحو جسر ماري . مستنداً إلى الحاجز ، يتأمل ، طويلاً ، مياه النهر المضطرمة ويسمع صخب المدينة العالي . ثم يرجع إلى مسكنه الكائن بشارع فيجييه . بعد أن يحاذي سور فندق دوسونس ، يجتاز الطريق المعبدة . يصعد إلى الطابق الثالث للبناية الصغيرة ، قرب الحديقة العامة . يتناول ورقة من على المكتب ، وهو ذا يدون بعد عنوان : «المرأة الأولى» .

«المرأة الأولى» ستكون حكاية وجه مدور وشاحب ، والتجربة الجنسية الأولى ، والاقتلاع في آن واحد . مثلما ستكون حكاية المدينة الأولى ، القلق الأول ، الرحلة الأولى ، رؤية البحر الأولى . تحكي «المرأة الأولى» عصاباً نفسياً يعيشه ، في إسطنبول ، طالب مدرسة داخلية يبلغ من العمر ستة عشر عاماً ، ويسمع صوت راشيل ، هيليني أولوسين ، أنايتا ، وربما أيضاً ديسبينا ، التي طالما أراد أن يلاقيها . هذا يعني أنه يلزمه أن يعبر بواسطة صوت الفتاة التي تمنى المراهق المسلم أن يعقد معها علاقته الحقيقية الأولى عن ألم إسطنبول ، سقوط بيزنطة والإمبراطورية العثمانية . ستحكي «المرأة الأولى» الأم : لطافتها ، حرارتها ، قربها . «المرأة الأولى» ستحكي المرأة ، ومن ثم المأخور . الآخر ، جسد

Twitter: @ketab_n

الآخر ، الرجة التي سببها الإحساس بالوحدة ، التي نجربها عند السقوط في هذا العالم السفلي عن الخروج من البطن الأمومي . «المرأة الأولى» ستكون حكاية الوجه المدور والشاحب ، الصوت الرقيق ، الحاد مثل تمزق الشيطان ، تاريخ إسطنبول ، الخوف الأول ، الخطيئة الأولى ، الكلمة الأولى ، في آن واحد . بالأخص ، الكلمة الأولى .

أذكر المزهرية الزرقاء ، الشفيفة ، الموضوعة على صوان وسط قطع بلورية صغيرة ، الأقداح الفضية ، أكواب الشاي البراقة ، في الصالون بالطابق الأول لمسكننا الريفي الصغير ، الذي نبلغه لما نجتاز صحن الدار الخالي ، في الضوء الساطع ، دوماً ، الستائر مسدلة في هذه الغرفة . بغرض عدم الطاعة الطفولية ، أدخل إلى الصالون متستراً ، ثم أتأمل طوال ساعات المزهرية التي تزرق شيئاً فشيئاً في الضوء الخافت . بالضبط ، قربها أرى وجه أمي . وجنة قبالة وجنة مع والدي في الصورة . كانت شابة ، شعرها طويل ، ذات جبهة عريضة ووجنتان بارزتان . لم يكن الموت بعد قد سرق نظرتها ولا شحوبها الغريب شوه ملامحها . ذات يوم ، وددت أن أتناول المزهرية من على الصوان . رغبت أن ألمس وجه أمي كي أستدعي حقيقتها . ألمس أمراً مختلفاً . حينما سأكبر ، سيتعرى العالم حولي ، وستتضح الأشياء وهي تهرب من الانصهار . والذوات أيضاً . لكن تنزلق المزهرية من يدي مثل الصورة . مياه زرقاء ، راحت تدفق في ضوء الصالون الخافت . مثل وجه أمي . أذكر أنني صحت بجرم سنواتي الأربع ، محاولاً أن ألتقط قطع الزجاج : «فعلتُ كارثة! فعلتُ كارثة!» . سمعتني أمي ، قلقة ، ارتقت الدرج دفعة واحدة ، ولجت الصالون و دون أن تهتم بالمزهرية ولا بالصورة عملت على تصحيح جملتي . بعد ذاك ستصمت للأبد ، إذ أن الموت لن يمكّنها من الكلام ، تسمية العالم ، الأفراح ، السعادة ، اللذات ، باختصار الجمال ، وقامتْ من فورها بتعليمي : «سببتَ كارثة! سببتَ كارثة» . لم تخن المزهرية سرها ، ووجه الأم المدور والشاحب لم يتموضع أبداً في الإطار ، ومع ذلك تلاشت الجاذبية . مع لا مبالاة سنواتي الأربع ، لم أكن متأكداً أبداً من معرفة أن هذه

Twitter: @ketab_n

الكلمات كلماتي ، وليست المزهرية هي التي تهشمت . سرقت ، واللغة ، لغتي الأمومية أنشأت تعمل لأجلي مثل شفرة اجتماعية . «المرأة الأولى» يجب أن تحكي هذه الحقيقة : كيف اخترقتُ لغتي الأمومية ، ثم انفصلتُ عنها . انفصلتُ . عنها .

Twitter: @ketab_n

صدر ضمن سلسلة إبداعات

رواية

وصف الماضي : غسان زقطان

سماء بلون الياقوت : أمير تاج السر

دمعتان على خد القمر : محمد سناجلة

ربيع آخر : تاكاشي تسوجي

ترجمة : فخري صالح

دميان : هرمان هيسّه

ترجمة : ممدوح عدوان

ذئب البحار : جاك لندن

ترجمة : عمران أبو حجلة

الموت الجميل : جمال أبو حمدان

الخلود : ميلان كونديرا

ترجمة : محمد درويش

خمس رسائل إلى امبراطورية شرقية : ألسدرغراي

ترجمة : سهيل نجم

الغرينغو العجوز : كارلوس فوينتس

ترجمة : الياس فركوح

حفلة القنبلة : غراهام غرين

ترجمة : بتول الخضيري

ماركو ڤالدو : إيتالو كالفينو

ترجمة : منية سمارة

العجو والوسام : فرديناند أويونو

ترجمة : ممدوح عدوان

شيطان في الجنة : هنري ميللر

ترجمة :شاكر لعيبي

الغربان : هزاع البراري

بيت المحرمات : أنابيس نن

ترجمة : حنان شرايحة

Twitter: @ketab_n

مقامات لا ثارو : لاثاريو دي تورميس

ترجمة : عبد الهادي سعدون

سوسروقة خلف الضباب : زهرة عمر

قطف الزهرة البريّة : جمال أبو حمدان

قلب الظلام : جوزيف كونراد

ترجمة : صلاح حزّين :

الأعمال الروائية الكاملة : غالب هلسا

الصحن : سميحة خريس

نسيّاً منسياً : زياد بركات

الأضرحة : عزيز التميمي

أن ترى الآن : منتصر القفّاش

كرّاسة كانون : محمد خضيّر

إنجيل الإبن : نورمان ميللر

ترجمة : ثائر ديب

رحلة البحث عن الذات : حسن اللواتي

قميص وردي فارغ : نورا أمين

موت : رشيد بوطيب

رجال بلا بنادق : خالد ياسين

يد الوزير : محمد صوف

مثلث بلا أضلاع : فاطمة الحسّاني

وطن السنبلة : أحمد محمد أمين

حرفة القتل : نوربرت غشتراين

ترجمة : سمير جريس

فنان من العالم الطليق : كازو أيشيجورو

ترجمة : هالة صلاح الدين حسين

إكس : كريستيان ڤيلا

ترجمة : مي عبدالكريم

فنانة الجسد : دون ديللو

ترجمة : محمد عيد إبراهيم

ممرات السكون : إقبال القزويني

Twitter: @ketab_n

سبت يا ثلاثاء : زيد الشهيد
عندما خرجت من الحلم : علي عباس خفيف
محمد يحبّني : إلينا ريس
ترجمة : محمود عبدالغني
الحارس في حقل الشوفان : ج . د . سالينجر
ترجمة : غالب هلسا
نادي البهجة والحظ : آمي تان
ترجمة : رندة أبو بكر
تراب الغريب : هزاع البراري
رجيم الكلام : فوزية الشويش
كتاب المراحيض : لؤي حمزة عباس
استعراض البابلية : عاطف سليمان
حبر : محمود أبو هشهش
أرض اليمبوس : إلياس فركوح
سفر آخر الليل : يعقوب الخنبشي
صرخة البطريق : حمزة الحسن

Twitter: @ketab_n

نديم غورسيل المرأة الأولى

هذه رواية تحكي تفاصيل يوم واحد في حياة مراهق.. طالب بمدرسة داخلية في اسطنبول، من أصل ريفي أناضولي.. مسلم، هذا اليوم يمثل نقلة هائلة في حياة المراهق المسلم حيث يتوجه إلى ماخور فيما أمه تحتضر بمسكنهم الصغير...

ثم تواصل الرواية تتبعها للمسارات الجديدة في علاقاته. بعد أعوام في باريس تتبدى أمامه وجوه نسائية، العاهرة ، الأم، بطلة أسطورة تركية قديمة، واسطنبول «تلك الأرمل البكر رغم الأزواج الكثيرين»... «المرأة الأولى» كما كتب نديم جورسيل: «حكاية وجه مدور وشاحب، والتجربة الجنسية الأولى، والإقلاع في آن معاً، مثلما هي حكاية المدينة الأولى، القلق الأول، الرحلة الأولى، رؤية البحر الأولى، الصوت الرقيق الحاد مثل تمزق الشيطان، تاريخ اسطنبول، الخوف الأول، الخطيئة الأولى، الكلمة الأولى في آن واحد. بالأخص الكلمة الأولى» .

نديم جورسيل... روائي وقاص تركي معاصر، من مواليد العام 1951، يكتب بالتركية والفرنسية في آن معاً.

حازت روايته «المرأة الأولى» في عام 1986 على جائزة ايبكسي لمساهمته في التقارب بين الشعبين التركي واليوناني

تلفاكس 5522544 6 00962 ص . ب 950252 ، عمّان 11195 الأردن

ISBN 978-9957-09-306-8 (ردمك)